عصير الكتب

الملائكة لا يحملون الكُتب

حكاوي اجتماعية

محمد عبد الوهاب

الملائكة لا يحملون الكَنب

حكاوى اجتماعية

محمد عبد الوهاب

القاهرة

يناير ٢٠١٦

المحتوى

١ـ حكاية هند
٢ـ النعش الطائر
٣ـ حمامة بيضاء
٤ـ القيد
٥ـ يوم الخبيز
٦ـ الملائكة لا يحملون الكَنب
٧ـ صندوق الاسرار
٨ـ خطبة الجمعة
٩ـ هيام
١٠ـ عسل بالملح

إهداء

إلى نفسى التى انتصرت على يأسها وكتبت
رغم كل ما يدور داخلها وحولها
إلى الغائبة الحاضرة أمي
إلى أبى وإخوتي وأهلي وأصدقائي
وكل من أنتظر تحقيق حلمى
بخروج أول كتاب لي إلى النور
إلى كل من قرأت له حرفا
أو سمعت منه حكاية
إلى أصحاب الحكايات الحقيقية
في هذا الكتاب

وإلى كل من خذلني..

استهلال

فى واحة مهجورة، بعيدة عن مرمى البصر
قل لى بربك ماذا يعنى القدر ؟
هل هو نزول المطر ؟
أم هبوب الرياح ورقص أغصان الشجر ؟؟
أم تعاقب الليل والنهار بشكل روتينى يثير الضجر؟؟
لا يوجد قدر يا صديقى إلا إن كان هناك بشر.

حكاية هند

(1)

كنت أراقب دقات الساعة وأرجوها أن تمر حتى تشرق الشمس ويأتي اليوم الذى انتظرته كثيرا، أول أيام دراستى بالمرحلة الجامعية، وكنت مثل طفلة صغيرة فى ليلة العيد تنتظر شروق الشمس بجوار ملابسها الجديدة بألوانها الجميلة المختلفة، وأنظر إليهم من حين إلى آخر وأنا كلى اشتياق للحظة التى سأرتديهم فيها، لكى أشعر بأنوثتى الحقيقية التى كان الزى المدرسى يدفنها بلونه الوحيد الكئيب والمضاد لطبيعتى كأنثى تعشق التزيّن والألوان، وكان أهم أسباب انتظارى لهذا اليوم هو رغبتى فى أن أرى العالم خارج حدود الحى الشعبى الذى أعيش فيه ولا أغادره إلا نادرا، ورغم اشتياقى لبداية انطلاقى فى الحياة الجامعية والتعرف عليها، إلا أنى كنت أحيانا كثيرة أرتبك حين أسأل نفسى كيف سيكون شعورى فى أول تجربة لى مع الاختلاط بالجنس الآخر الذى لم يكن لى تجارب معهم غير ذكرى أليمة فى طفولتى كنت أهرب دائما من التفكير فيها، لأنها سببت لى أزمة نفسية تجاه ذلك الجنس لسنوات كثيرة، لكن مع ميلاد أنوثتى الحقيقية وبداية تكوينى الجسمانى والنفسى فى المرحلة الثانوية بدأت تتكون لدى أفكار أخرى مختلفة من حكايات البنات عن (الصبيان أو الأولاد) كما كانت البنات يطلقن عليهم فى حكاياتهن، ولأن مدرستى فى تلك المرحلة كانت بجوار المنزل، لم يكن هناك سبيل للمجازفة بتجربة الهروب من المدرسة مع إحدى زميلاتى لمقابلة الأولاد والتعرف على أحدهم والدخول فى علاقة مثل الكثيرات منهن، خاصة انى كنت خوّافة بطبيعتى بسبب الطريقة القاسية التى ربانى بها أبى، الرجل الصعيدى الذى أتى إلى تلك المدينة للبحث عن عمل ووجد ضالته فى ذلك الحى الشعبى الذى كان على أطراف المدينة ولم يكن

يسكنه الكثير من الناس ثم أصبح بعدها يطلق عليه الصين الشعبية بسبب التكدس السكانى الشديد به، وفيه تعرّف أبى على أمى وتزوجها وأنجبت له أخى قاسم ثم أنا.

كانت الدقائق لازالت تمر ببطء فى تلك الليلة، وكنت أجلس فى الصالة الصغيرة التى تفصل بين الغرفة التى نتقاسمها أنا وقاسم وبين غرفة أبى وأمى، وأثناء مشاهدتى للتلفاز وعدم تواجد أبى وأمى بالمنزل، فجأة خرج قاسم من غرفتنا مستيقظا من نومه وأثناء اتجاهه إلى الحمام طلب منى- بطريقته الفظة المعتادة كما لو كنت خادمة- أن أحضر له الطعام، وبعد تناوله الطعام غادر المنزل، وارتحت لرحيله ودخلت الغرفة التى لا أشعر بالراحة فيها إلا حينما يكون "قاسم" خارج المنزل، وكان من ضمن أحلامى البسيطة أن تكون لى غرفة مستقلة أشعر فيها ولو بالقليل من الخصوصية.

ارتديت ملابسى الجديدة، وشغّلت أغانى، ووقفت أمام المرآة أرقص، ووقعت عيناى على كشكول المحاضرات الجديد، أخذته من على الطاولة واحتضنته، ورحت أدور حول نفسى وأتمايل فى نشوة وسرور كأنى أراقص حبيبى.

(2)

أخيرا جاء الصباح، وخرجت إلى الشارع أستنشق عبير حريتى بالخروج دون وصى أو رقيب لأول مرة، ووقفت أنتظر الأتوبيس، وحين وصل كان مزدحما بالناس وبصعوبة وسط التدافع والتلاحم صعدت إليه، وأصبحت فى ثلثه الأخير، وكنت أقف فى الممر الذى بين المقاعد، وبدأت أشاهد من نافذة الأتوبيس المحلات والسيارات والناس، ووقعت عيناى على مجموعة من الفتيات يرتدين الزى المدرسى ويتبادلن الحديث أثناء سيرهن ويضحكن، وتذكرت أول أيام الدراسة قبل ذلك بعام، وكيف كنت فى نفس المشهد أنا وزميلاتى، وبعد قليل توقف الأتوبيس فى محطة أخرى وصعد

أخرون، وقتها شعرت بالاختناق من زحمة الأتوبيس وعدم قدرتى على الحركة، لكن فجأة شعرت بجسد رجل يلتصق بى من خلفى وحاولت أن أبتعد عنه، ولكنه كان يتحرك معى كأن حركة الأتوبيس هى التى تحركه بشكل لا إرادى، وبعد دقائق بسيطه شعرت بشىء ساخن ينتصب ويحتك بى ثم ينسحب كأنه ثعبان يقترب بحذر وتردد فى مهاجمة فريسته، انتفضت وطلبت من الواقف خلفى أن يبتعد قليلا فعاد الثعبان الى جحره سريعاً ورد الشخص بنبرة ضيق

- يعنى اعمل إيه يا أنسة ما انتى شايفة الزحمة ابعد أروح فين ؟

سكتّ ولم أرد، لأنى كنت كعادتى خائفة، واكتفيت بأنه ابتعد قليلا، وكنت أظن أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، لكن بعد دقائق توقف الأتوبيس مرة أخرى، وصعد ناس أكثر والتصق الواقف خلفى بى مرة أخرى، وشعرت بالثعبان مرة أخرى ينتصب ويهاجم فريسته، لكن هذه المرة بجرأة ودون حذر فقلت بصوت يخنقه البكاء.

- لو سمحت ارجع ورا شوية

وقالت سيدة عجوز تجلس أمامى بنبرة ممزوجة برجاء له وإشفاق علىّ

- وسع لها شوية يا ابنى دى زى اختك وشكلها مش عارفة تقف

انسحب الثعبان مرة ثانية لكن بهدوء غريب ثم رد الشخص ببجاحة وعصبية

- أوسّع أروح فين يا حجّة؟ هو انا عارف اقف وبعدين لا مؤاخذة ده أتوبيس عام واللى مش عاجبه الزحمة ينزل ياخد تاكسى وبلاش تَنَاكَه على (....) أبونا على الصُبح

وفى اللحظة التى تلت رده، صمت جميع الركاب كمجموعة من الأشباح يشاهدون قتل طفلة دون أى محاولة لمنع قتلها، بل

ينتظرون موتها وتحولها إلى شبح مثلهم، ثم تقف إلى جوارهم تشاهد ذبح الضحية التى تليها.

وبعد قليل عاد المتحرش ليلتصق بى، ومع اهتزاز الاتوبيس كان يستغل الفرصة ويقترب بأنفاسه من وجهى ظنا منه أنه ينفث فى وجهى لهيب شهوته ليصيبنى خدر الشهوة وأستسلم له بدلاً من محاولاتى التخلص من التصاقه بى، وفى تلك اللحظه توقف الأتوبيس فى إشارة مرور، وكنت أنظر من نافذة الأتوبيس وأنا لازلت أقاوم بحركتى المتحرش، وأقاوم نزول دموعى المختنقة وفجأة شاهدت سيارة خاصة حديثة وقفت بجوار الاتوبيس، وكان يقودها شاب توحى هيئته المتواضعة بأنه مجرد سائق، وفى المقعد الخلفى للسيارة كانت تجلس فتاة فى مثل عمرى تقريبا، وكانت تتحدث فى هاتفها المحمول وتضحك، وبجوارها توأم كشكول محاضراتى الذى كنت أمسكه فى يدى، وفى تلك اللحظة فقدت مقاومتى للبكاء، وقررت الهرب وانتهزت توقف الأتوبيس فى الإشارة وغادرته.

(3)

لم أكن أعرف أن مدينتنا التى صارت مختنقة بالزحام أصبحت كالغابة المليئة بالوحوش لا مكان للبشر فيها، ومر اليوم الدراسى الأول على عكس ما كنت أحلم به، وكنت طيلة الوقت شاردة أفكر فيما حدث وأخشى ما سيحدث أثناء عودتى.

خرجت من الكلية وسألت عن أقرب موقف "ميكروباص" وعلمت أنه على بعد أمتار من الكلية، وفى طريقى إليه لم أسلم من المضايقات والمعاكسات خلال الأمتار القليلة التى مشيتها، خفت أكثر وركبت "تاكسى" كانت أجرته مصروفى لمدة ثلاثة أيام.

(4)

لم أستطع النوم ليلة ذلك اليوم، وكنت أتذكر ما حدث فى الأتوبيس وأشعر بالقهر فأبكى، وحين غلبنى النوم قليلاً استيقظت مفزوعة بعد رؤيتى أثناء نومى لكابوس رأيت فيه نفسى أغتصب من شاب ملامحه غير واضحة رغم إحساسى أثناء الكابوس أنه كان مسخا بشعا، وبقيت مستيقظة أحارب النوم لكن حزنى وخوفى زادا حين بدأت أتذكر تفاصيل الذكرى الأليمة التى عشتها حينما كنت طفلة فى العاشرة من عمرى، فى ليلة حفل زفاف ابنة أحد أعمامى، وكانت شقتنا الصغيرة مزدحمة بأبناء وبنات أعمامى القادمين من الصعيد لحضور الحفل، وفى آخر تلك الليلة افترشنا الأرض ونمنا جميعا الأطفال والشباب بجوار بعضنا البعض، وفجأة أثناء نومى شعرت بيد تمتد نحو وتلامس جسدى، وكانت يد ابن عمى النائم خلفى والذى كان يكبرنى بست سنوات وكنت قبل تلك اللحظة أعتبره مثل أخى، لكني خفت منه وقتها وكنت لا أصدق ما كان يحدث لى، ولم أفكر أن أنتفض من مكانى وأصرخ مستنجدة بأمى لأنى كنت أظن أن أمى سوف تعاقبنى، فهى دائما ما كانت تفعل ذلك دون سبب، حتى عندما يضربنى أخى وأصرخ مستنجدة بها، كانت تكتفى بتحذيره من ضربى ثم تضربنى وتحذرنى من استفزازى له، لأن أمى كانت مقتنعة أنه لا بد أنه لا يضربنى دون أن أكون قد ضايقته، ولم يكن واردا أبدا عندها أن يكون ضربنى ليضايقنى، لذلك لم استنجد بأمى ولا بأى أحد، وكل ما فكرت فيه أثناء انتهاك جسدى هو ان أكتم أنفاسى وخوفى وكأنى طفلة وحيدة اقتحم لص بيتهم وقتل الجميع بشكل عشوائى ويقترب منها ليقتلها فلم يكن أمامها إلا أن تكون مثل الصنم ليظن اللص أنها جثة هامدة وماتت مثل باقى عائلتها ويتركها ويرحل، ثم تعيش بعدها وتنسى ما حدث، لكن ابن عمى اللص استغل سكوتى كصنم ورفع فستانى وتجرأ أكثر، ولم ينقذنى من هذا الموقف إلا أن حدثت حركة

بجوارنا، فارتعب ابن عمى وسحب يده واتخذ هو دور الصنم، وكانت الحركة صادرة من أخته التى كانت تنام معنا فى نفس الغرفة واستيقظت لتدخل الحمام، وانتهزت تلك الفرصة وقمت من مكانى وحين أضاءت بنت عمى نور الغرفة ووجدتنى مستيقظة وأتحرك بين أجساد النائمين متجهه إلى باب الغرفة سألتنى:

- رايحة فين يا هند

- رايحة الحمام

ولم أفكر فى النوم مرة أخرى فى تلك الليلة، وبقيت جالسة فى ركن من الصالة منكمشة على نفسى أحتضن قدمىّ وأبكى.

ومنذ تلك الليلة عشت فترة كنت أرى كوابيسا أثناء نومى، ثم مع مرور الوقت وبعد سنوات أصبحت تلك الكوابيس لا تأتينى إلا كل فترة لكن ذكرى انتهاك جسدي كانت تطاردنى طوال الوقت، وكنت أهرب منها دائما، وخلال تلك السنوات لم أر ابن عمى إلا مرات قليلة، وكنت أهرب دائما من رؤيته أو التواجد فى مكان هو فيه، لأنى كنت أكرهه بشدة وأكره نظراته التى تخترقنى، خاصة بعد أن اكتملت أنوثتى، ويوما ما علمت أنه انضم إلى جماعة دينية وأصبح متشددا دينيا، لكنى حين رأيته بعدها كان فضولي يبحث عن نظراته لى كيف ستكون بعد ما أصبح متشددا، ووجدت نظراته كما هى لكن الفارق الوحيد أنه كان يختلسها بعد أن كان يمارسها بوقاحة وجرأة كأنها حقه، وأردت وقتئذ أن أتأكد أكثر أنه لازال لصا، وألقيت إليه بعظمة فلهث ورائها وحين اقترب وجد العظمة سراباً وعاد من حيث أتى، ورأيت فى عينيه نظرة كره وحقد لى، وازددت احتقارا وكرها له، وأصبحت الوحيدة التى لا تصدق تدينه حين كشفت زيف ورعه وتقواه وحقيقته المشوهة مثلما كشف هو عورتى واستباحها حين كنت طفلة ولم يرحم خوفى الطفولى.

(5)

بعد كوابيس أخرى لانتهاك جسدى فى المواصلات، كرهت جسدى وقررت أن أخفيه عن الذئاب الجائعة لعلى أستريح من نهشهم للحمى بنظراتهم أو لمساتهم المقرفة، وغيرت من طريقة لبسى وارتديت النقاب والإسدال، ووجدت فى النقاب راحة تناسب شخصيتى لانه كان يخفى خوفي وارتباكي الدائمين، ويمنحني متابعة العالم من خلفه بحرية أكبر دون أن يتابعنى أحد، إلا أن لباسي الفضفاض ونقابي لم يجعلاني أسلم من الأيادي الناهشة والمستبيحة لجسدى، ويوما ما بسبب أزمة سياسية كانت تمر بها البلاد بين النظام الحاكم والتيارات الدينية، بدأت حملات اعتقالات لبعض عناصر وقيادات تلك التيارات، وبدأت الأجهزة الأمنية التضييق على كل مربى للحيته، وكل مرتدية لنقاب، فأمرنى أبى بخلع النقاب الذى كان يعارض ارتدائى له من البداية، فخلعته.

وذات يوم عدت من كليتى بعد أن تعرضت لكابوس جديد لانتهاك جسدى، وبعد أن دخلت غرفتى جلست أبكى وأسأل نفسى إلى متى هذا العذاب؟ وإن كان هؤلاء الذين ينتهكون جسدى فى المواصلات يفعلون ذلك بسبب جسدى الجميل والمثير، فلماذا تم انتهاك جسدى وأنا أخفيه خلف اللباس الفضفاض والنقاب ولماذا انتهك ابن عمى جسدى وأنا طفلة؟ ورد صوت داخلى على سؤالى بجواب كنت أهرب منه وهو أن الصمت والخوف هما الشيئان اللذان بسببهما تعرض جسدى للانتهاك فـ ابن عمى كان يبحث عن تفريغ شهوته بتحسس أعضاء تناسيلية حقيقية بعيدة عن خيالاته أو مشاهدة الأفلام الجنسية التى يتلاشى مفعولهما مع الوقت أمام تزايد شهوته فى سن المراهقة، ولأنه غير قادر على أن يفعل ذلك مع فتاة فى مثل سنه خوفا من رفضها وفضيحته أو قبولها وحملها منه وتحمل عواقب فعلته، فكانت الطفلة الجبانة هى الأنسب لتفريغ

شهوته، أو أن يلجأ للتحرش بإحداهن فى المواصلات مستغلا سكوتها خوفا من الفضيحة.

وفجأة تذكرت حين كنت فى زيارة لجدتى بالصعيد وكنت أخاف من الخروج من بيتها لأن خارجه توجد كلاب لا تكف عن النباح، فكانت جدتى تقول لى:

- اخرجى شمى الهوا يا هند وما تخافيش من الكلب وهو عمره ما يقرب لك، الكلب يا بنيتى لا ينبح ولا يتجرأ إلى على اللى يشم فيه ريحة الخوف ساعتها بس الكلب ممكن ينهش لحمه.

وتذكرت أيضا قبل ذلك بسنتين حين كنت أريد حضور حفل زفاف أعز صديقاتى التى لم تكمل تعليمها وكان حفل زفافها ونحن فى الصف الأول الثانوى، لكن أبى وقتئذ اشترط لذهابى للحفل أن يكون قاسم معى، ولساعات قبل موعد الحفل كنت أرجو أخى أن يذهب معى، لكنه كان يرفض رغم أنه كان لا يفعل شيئا سوى الجلوس فى البيت للأكل والشرب ومشاهدة التلفاز وإلقاء الأوامر التى تشعره بأنه ذكر ومتحكم، يومها بكيت كثيرا لحرمانى من أبسط حقوقى فى مشاركة أعز صديقة لى سعادتها بيوم زفافها، وأثناء بكائي وقتئذ اتصلت جدتى من الصعيد وشكوت لها ما حدث.. وسألتها ببراءة وكأنى لا أعرف الإجابة:

- ليه يا جدّة ماقدرش أخرج وحدى زى قاسم وأحضر فرح صاحبتى رغم إن الوقت لسه بدرى والشوارع مليانة ناس مش رايحة فى نص الليل مثلاً ؟

ردت جدتى بصوتها الحنون:

- عشان الشارع مليان ديابة يا بنيتى والدنيا حَدَانَا وفى زمانا بقت ماشية خِلف خلاف، والراجل بدال ما يحارب الديابة عشان بناته يخرجوا ويلعبوا قدام البيت، حبس البنات وساب الديابة واقفة

تنهش اللى يطلع .. تعرفى ليه يا بنيتى ترك الديابة واقفة وحبس بناته ؟

- ليه يا جدّة ؟

- لأنه لما يطلع بره بيته بيتحول ديب زيهم وينتظر بنات غيره يطلعوا عشان ينهشهم .. والديابة عم يلعبوا على مين ينهش بنات غيره وبناته ما حد ينهشهم، والكل خسران يا بنيتى لان ما حد عم ينهش خصمه غير من وراه .. ماتزعليش يا بنيتى قدرك تكونى بنت مش ديب.

وكانت المرة الأخيرة التى سمعت فيها صوت جدتى وماتت بعد تلك المكالمة بأيام وكم كنت أفتقدها وأفتقد حكمتها ودعمها فى أيام كوابيسى.

ومع تكرار تعرضى لتلك الكوابيس وشعورى المتزايد بالضيق والحزن، كان خوفى قد زاد بالشكل الذى أصبح لا بد وأن يتحول إلى نقيضه من شجاعة ورغبة فى المواجهة، خاصة بعد ان استنفذت كل طاقتى فى صد هجمات الكلاب عنى، وقررت أن أدافع عن نفسى وأواجه أى محاولة للتحرش بى بحسم وقوة، لكن مرت أيام لم أتعرض فيها لأى تحرش وكنت أتعجب من اختفاء المتحرشين بهذا الشكل! ولا أعرف.. هل فجأة أصبحت الغابة التى نعيش فيها دولة حقيقية وعالج المسئولون عنها مشكلة التحرش واعتقلوا كل المتحرشين؟ لكن ذات يوم أثناء ركوبى الاتوبيس اقترب منى أحدهم ومد يده بحذر يتلمّس مؤخرتى، واستجمعت قواى وأمرته بعصبية وحزم أن يبتعد عنى وأن لا يقف ورائى هكذا، رد المتحرش بعجرفة رافضا طريقتى فى الكلام معه وادعى بأنه لم يفعل لى شيئا، وفجأة دافع عنى شاب أسمر وسيم وقام من مقعده وأجلسنى مكانه، وظل ينظر لى حتى حان نزولى وشكرته على ذوقه، لكنه نزل معى وتعرف على بلطف وذوق، وسألنى عن

موعد خروجى لينتظرنى ويوصلنى خوفا على.. ولا أعلم لماذا وافقت على ذلك.

(6)

لم تستمر كثيرا قصتى مع ذلك الشاب الأسمر، لأن برغم أيام الأمان التى شعرت بها معه وتذوقت لأول مرة طعم الاهتمام وشعور أن هناك من يحميني من باقي الذئاب إلا إني وجدته ذئبا أيضا يريد أن يأخذ منى أكثر مما يحاول المتحرشون أخذه لكن بطريقة أخرى أو تحت غطاء آخر كان يسميه الحب، والحقيقة أنى لم أشعر أبدا أنه يحبني حقا، وكنت أفهم أنه مجرد عاطل عن العمل لا يجد ما يفعله سوى البحث عن مغامرات مع البنات ليشغل وقت فراغه وبعد إصرارى على عدم منحه ما يريد رحل سريعا، ليبحث عن فريسة أخرى.

بعد ذلك بسنتين توفى أبى بمرض الفشل الكلوى، بعد عذاب فى المستشفيات الحكومية، وكنت أعيش حالة حزن دائمة، وتعرفت فى تلك الفترة على زميل لى بالجامعة، ونشأت بيننا قصة حب شعرت خلالها أنى أحبه ولا أستطيع الاستغناء عنه، وعن حضنه وحنانه، وظلت هذه القصة مستمرة حتى تخرجت من الكلية وفجأة بدأت تتغير معاملته لى دون سبب واضح، وقرر إنهاء العلاقة بحجة أنه لا يستطيع الارتباط الرسمى، ولا يريد أن يظلمنى معه ورغم كل محاولاتى التمسك به ورجائى له أن يبقى .. تخلى عنى وبسبب تلك التجربة التى عشتها بكل كيانى وفعلت فيها من أجله الكثير، دخلت فى حالة نفسية سيئة وانعزلت عن العالم حتى اضطررت للخروج من قوقعتى للعمل بعد أن تم القبض على أخى بسبب مشاجرة أحدث فيها لأحدهم عاهة مستديمة وتم حبسه، وكان على وقتئذ أن أخرج لمواجهة الذئاب من جديد.

(7)

ثلاث سنوات مضت كنت أتنقل فيها من عمل لآخر بسبب تحرشات أصاحب الأعمال التى عملت بها، وكان عملى عادة ما يكون بائعة فى متجر أو سكرتيرة فى أحد المكاتب أو العيادات، فلم يكن مؤهلي الدراسي يمنحني أى عمل مناسب يحفظ لى كرامتي وآدميتي، وذات ليلة كنت عائدة من عملى إلى بيتى وركبت كعادتى الأتوبيس وجلست بجوار النافذة ورحت أنظر من خلالها على الشوارع والناس الذين أصبحوا بالنسبة لى مثل الأشباح أراهم وأخاف من وجودهم، لكنى مادمت بعيدة عنهم وعن شرهم فأنا إلى حد ما بخير، وانفصلت عن العالم من حولى وسرحت بعيدا فى عمرى الذى مضى وأحلامى التى ماتت، وكيف تحولت إلى حيوان يعمل من أجل أن يأكل ويشرب وينام، وثارت بداخلى الشجون وكنت أريد أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة فى وجه هذا العالم الذى كنت أعتبره مجرد مقبرة تم وأدى فيها، لكن فجأة صعدت فى إحدى المحطات امرأة تحمل طفلا، ونادت على فأخرجتني من متاهتى داخل أحزاني وأعادتني إلى الواقع، وكانت إحدى صديقاتي في المرحلة الثانوية التي انقطعت أخبارها عنى منذ فترة، جلست بجواري وتبادلنا القبلات والعناق وبدأت الأسئلة عن الأحوال وعن التغيرات التي حدثت في حياة كل منا، وعلمت منها أنها أُجبِرت منذ سنوات على الزواج من شخص لا تحبه وتعيش معه مرغمة، وفى الوقت الذى كانت تحكى فيه عن نفسها كنت أنظر إلى ابنها الذى تحمله على كتفها وتضمه إلى صدرها وكنت أحسدها على شعور الأمومة، وحين جاء دورى وحكيت عن نفسى حسدتني صديقتي أنى لازالت حرة ولست فى قبضة رجل، ونصحتني ألا أتزوج إلا من شخص أحبه وأستطيع أن أتعرى أمامه لأن لحظة التعري لحظة خاصة ومقدسة لا يجوز أن نعيشها إلا فى حضرة من يعشقنا ويستحق مشاركتنا فيها، وكذلك الحضن لا يجوز أن تترك أمرأة

رجلاً يحتضنها إلا إن كانت واثقة أن حضنه خلق لأجلها لكى تجد فيه الراحة والأمان

فسألتها:

- حسيتى بطعم الحضن كام مرة فى حياتك؟

- ولا مرة

- ولا مرة ازاى .. ولا حتى مع حبيبك قبل الجواز ؟

- حبيبي كان خجول جدا وكان مفيش ظروف تسمح بأن يحصل حاجة بينا، ومع جوزى ولا مرة عرفت يعنى إيه حضن بجد، ولا مره لقيت حضنه وقت ما بحتاجه أو حسيت إن حضنه مقاسى وإنه اتخلق عشانى، ولا مرة دخلت الحضن ده بإرادتى أو حسيت إن الحضن ده بيحضن روحي ولا مرة حتى اتسألت أنا نفسيا عندى استعداد للحضن ده ولا لأ، وبصرف النظر عن إن سواء عندى استعداد أو لأ إنى فى كل الحالات مش عايزاه ومش حسّاه.. بس إحساس وحش قوى صدقينى، إن يكون حضنك مش ملكك، وإن يكون مفروض عليكى، تعيشي مشهد اغتصابك عشرات المرات، بدون أى اعتراض أو مفر من الفرض ده، لحد ما تتعودي على كده، وتأقلمي نفسك إنك تنفصلى عن الدنيا وعن الحياة خلال دقايق اغتصابك كأنك بتتخلى عن جسمك لحد ما تتم عملية انتهاكه وتهربي بروحك بعيد ولما ينتهى انتهاكه بترجعى بروحك لجسمك وتعيشي تانى بيه وانتى كرهاه بس مضطرة لأن روحك لازم تعيش جوه جسد.

- للدرجة دي ؟؟؟!!!

- وأكتر .. أصل الحضن مش دراعين يضموكى وخلاص، الحضن هو اللى لما تدخليه تحسي إن روحك دخلت الجنة، وتبقي حاسة بمنتهى الراحة والأمان والسلام النفسي .

غير كده.. صدقينى يبقى مجرد جسدين لازقين فى بعض

(8)

ذات ليلة شعرت بالضعف وبقسوة الوحدة، وشعرت بالاحتياج للمسة حب وحنان من رجل يحبنى ويضمنى إلى صدره واشتعلت بي الرغبة ولا ادري لماذا كانت رغبتي تشتعل احياناً رغم انهم اجتثوا سبب اشتعالها وانا طفلة؟

أرقتنى الرغبة طيلة الليل حتى نمت بصعوبة، واستيقظت من نومى فى موعدي المعتاد وبدأت الاستعداد للخروج إلى عملي وأثناء وقوفي أمام المرآة لارتداء طرحتي جائتنى رسالة على الهاتف من ابنة عمى وكانت الرسالة تهنئة بعيد ميلادي السادس والعشرين، فتركت الهاتف وتأملت ملامحي فى المرآة وشعرت بحزن شديد على عمرى الذى يمر دون أن أشعر فيه بالحياة ولو لمرة واحدة، ولم أحقق حتى حلمى المتبقى من جملة أحلامى التى أعدمها الواقع بأن أصبح زوجة وأما، وكلما كانت السنوات تمر كان سهم الزمن القاتل يقترب من إصابة حلمى الأخير وقتله أيضا، وكنت أسأل نفسى كيف يكون تأخر حلم الزواج بسبب أن ذلك هو قدرى؟ ولماذا أنا وكل من مثلى تتأخر أقدارنا؟ ولماذا لا يكون السبب هو المجتمع بعاداته وتقاليده وذلك الزحام الشديد والحياة التى ليس فيها حياة؟؟ ولماذا على الفتاة فى هذا المجتمع أن تعيش لتنتظر كل شىء حتى يمنحوه لها ويخبروها أنه قدرها؟ ولماذا احلامنا دائماً مؤجلة او متوقفه على مجئ احدهم او موافقته؟ حتى الرغبة فى تكوين أسرة وبداية حياة مختلفة لابد أن تنتظر الفتاة أن يأتى أحدهم ويطلبها للزواج لتبدأ حياتها، وهل الزواج بالفعل بداية الحياة أم نهايتها أم أن أهميته فى مجتمعنا تعود إلى ما يتم تحقيقه منه ؟؟

خرجت إلى عملى وركبت الاتوبيس وكان شديد الازدحام، ووقفت فى الممر بين المقاعد وكنت لازلت على شرودى وحزنى

وانغماسى فى أسئلتى، ورأيت من نافذة الأتوبيس رجلاً يضرب أمراة تحمل طفلاً ويبدو انها زوجته، ولم يتحرك أحدا من الناس للدفاع عنها، ذلك لأن فى مجتمعنا هذا حق للرجل أن يضرب أمراته ويهينها فى اى وقت يشاء، لكني سألت نفسي ماذا لو كان هذا الرجل يقبّلها او يحتضنها فى الشارع؟ الجميع يعرف الإجابة ولذلك ليس علينا أن ننتظر من مجتمع يبيح الضرب ويمنع الحب إلا أن يكون موطناً لكائنات مشوهة، وفجأة اقترب منى أحدهم من الخلف وبدأ بلمسى بحذر، فوجدت نفسى مستسلمة له وكأنى ما عدت أستطيع أن أقاوم أو أدافع عن نفسى أو لعلى كنت كرهتها وشعرت بأنها تستحق الإهانة وأن تصبح مستباحة هكذا، وأثناء تحرشه بى وصمتى توقف الأتوبيس فى إشارة مرور ووقعت عيناى على سيارة تقف بجوار الأتوبيس وكان بها فتاة فى مثل عمرى تجلس بجوار شاب وسيم ويتبادلان الحديث وعلى وجه كل منهما ابتسامة وفى المقعد الخلفى بالسيارة كان هناك طفلين فى غاية الوسامة يلعبان ويضحكان، وقتها فرت منى دمعة لم أستطع منعها وبقيت مستسلمة لذلك الذى يقف خلفى وبدأت جرأته تزداد.

(9)

ذات ليلة، كنت أشعر بالملل والوحدة كعادتى وفتحت موقع التواصل الاجتماعى فيس بوك وكان أول منشور وقعت عيناى عليه لشخص اسمه " خالد " وكان منشوره بعنوان (مفاهيم يجب أن تصحح) وكان يثبت بالدليل من كتب التفاسير أن معاني بعض الآيات ليس كما يفهمها معظم الناس مثل الآية " وأتوا البيوت من أبوابها" وأنها ليس لها علاقة بالزواج وان سبب نزولها كما ثبت فى الصحيحين، كان للنهى عن عادة من عادات أهل الجاهلية الذين كانوا إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدا بذلك، وظناً أنه بر فأخبر الله أنه ليس ببر، وفى تفسير الآية " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات

أولئك مبّرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم" قال أنها جاءت فى سياق التعقيب على حادثة الإفك وعقاب أصحابه وتأديب الخائضين فى اعراض الناس ومعناها أن الكلمات الخبيثة لا تصدر الا من الخبيثات والخبيثين والكلمات الطيبة لا تخرج الا من الطيبين والطيبات، ولا يصح القول بأن معناها هو ان الرجل الخبيث يتزوج خبيثة مثله والطيب يتزوج طيبة والا فما القول فى بعض الانبياء الذين كانت زوجاتهم كافرات مثل نوح ولوط؟؟

وقوله " ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ" اي المصاحبات سراً لممارسة الزنى وليس كما قيل أنه اي تعامل بين امرأة ورجل فى إطار عمل او زمالة ينطبق على المرأة هذه الآية.

كنت أتابع دائما منشوراته وتعجبنى معظم آرائه، التى غالباً ما تصدمني وتغير بعض قناعاتى وأجدها متسقة مع الواقع، لكنى لم أفكر أبدا فى محادثته أو حتى إبداء إعجابى بآرائه أو مناقشته فيها، ولانى كنت فى تلك الليلة فى أشد الحاجة أن أحكى مع أى شخص، بدأت معه محادثة شعرت فيها بالراحة منذ الدقائق الأولى، واسترسلت فى الكلام عن نفسى وحكيت لـه حكايتى مع الإنسان الذى أحببته ومنحته الكثير ثم خذلنى ورحل، ولم يكن "خالد" أثناء حكي له يرد سوى بردود مختصرة أو يسألنى عن شىء بخصوص ما أحكيه وبعد أن انتهيت من سرد قصتى انتظرت رده فلم يرد رغم ظهور علامة رؤيته لرسائلى، شعرت بجرحه لكبريائى بتجاهله لى وأرسلت له رسالة أخيرة قلت فيها "أنا أسفة للإزعاج وواضح أن ظنى فيك ماكنش صح وواضح إنك فهمتنى غلط وأكيد قلت عنى أنى بنت شمال بس مش مهم.. لانى مش ندمانة وفعلاً ارتحت لما حكيتلك."

وقبل أن أسجل خروجى من الموقع وأستعد للنوم جائتنى منه رسالة " أولا أسف على التأخير فى الرد وياريت بلاش تتسرعى فى أحكامك بعد كده، ثانيا أنا مستحيل أكون شوفتك كده، وطبعا

انتى مش بنت شمال عشان البنت الشمال مش البنت اللى غلطت لأن أى بنت فى الأول والآخر بشر وطبيعى إنها تغلط أما البنت الشمال بالنسبة لى فهى البنت اللى اتعودت على الغلط فى أى وقت ومع أى حد.. وانتى مش كده.. ولو كنتى غلطتى تبقى غلطتك فى اختيار الشخص اللى يستحق تضحى عشانه أو تمنحيه مشاعرك"

وفى ختام محادثتنا ارسل لى " انا حاسس فى كلامك انك بقيتي تكرهي نفسك، وعايزك قبل ما تنامي تاخدي دش وتقفي قدام مرآيتك زي يوم ما اتولدتي، وتبصي لتفاصيل انوثتك بهدوء وتأمل وبعدين تشغلي مزيكا هاديه وتسترخي على سريرك شوية، وأحلمي وانتي مفتحة عنيكي اي حلم جميل يخليكي تبتسمي وتبقي مبسوطه، وبعدين تلبسي هدومك وتنامي من غير ما تفكري فى اي حاجه وأظن انك بعدها هتصحي وانتى حاسه انك اتولدتي من جديد"

لم أكن أتصور ابداً أن يدق قلبى مرة أخرى ويعشق أحد بتلك الطريقة التى عشقت بها "خالد" الشاب المثقف الذى كان نافذتى لرؤية هذا العالم بشكل مختلف وبنظرة ابعد كثيراً من نظرتى المحدودة قبل معرفتي به، وأصبح دليلى للعيش في هذه الدنيا بالطريقة الأفضل، ولم أشعر أبدا أنى أكبر منه بسنتين وكنت أشعر أنى طفلة أمام أسلوبه وعلمه وثقافته وفى كل لحظة كانت تمر على معه، كنت أتعلم منه الكثير.

وذات يوم انتقلت لعمل جديد، وكنت أشكو له عدم ارتياحى فيه وسوء معاملة الزميلات هناك وإصرارهن على أن أقوم بعملى بالطريقة المعتادة، ولا استعمل عقلي فى ابتكار اي طريقة أخرى، رغم أن لدى طرق أفضل تجعلنى أتم عملى على أكمل وجه فى وقت أسرع وبنتائج أفضل، ضحك "خالد" فتعجبت من ضحكته رغم أنى كنت فى حالة يرثى لها من الضيق والحزن، لكنه برر سبب ضحكه حين قال "عارفة.. مشكلتك دى بتفكرنى بالعالم اللى احنا عايشين

فيه، العالم كله عامل زى مكان شغلك بالظبط لأن فيه ناس فاكرين إنهم عشان وصلوا للمكان ده قبلك، يبقى هما أعلم منك بشئونه وعليكى انك تعيشى فيه بنفس قوانينهم وطريقتهم مع إن القوانين والطرق اللى قرروا يعيشوا بيها اخترعوها هما أو ناس قبلهم عشان يديروا بيها المكان مش كانت موجودة والمكان فرضها عليهم، والغريب إن أى محاولة ليكى لاختراع طريقة جديدة توصلى بيها للهدف بشكل أفضل بيعتبروها تهديد لوجودهم لأن معنى كده انك هتاخدى مكانهم وتغيرى عالمهم.. بس لازم تحاربى عشان تفرضى طريقتك مادامت جديده وصحيحه وتأكدى إنك لازم فى يوم تنتصرى لأن الزمن عمره ما بيقف عند حد ومستحيل يرجع للخلف أبدا.

وفى يوم آخر كنت ألعن فيه القدر الذى جعلنى أسكن فى ذلك الحى الشعبى، وكنت أشكو له تصرفات الجيران، وقبح الشوارع بسبب إلقاء القمامة فيها، وانتشار البلطجة، وحسدته أنه يعيش فى مكان راقٍ مع أحد أصدقائه، ويومها ضحك أيضا وسألنى ماذا لو أن الشرطة اعتقلت كل البلطجية والخارجين عن القانون، واتفق أهل الحى على رفع القمامة وعدم إلقائها بشكل عشوائى، ومعاقبة من يخالف أى سلوك حضارى، هل بعد ذلك سيكون الحى الذى أسكن فيه أفضل من حيكم الشعبى؟ قلت لا، فضحك وقال إذن هى الإرادة وليست الأقدار.

ولم تعد الرسائل والمحادثات الهاتفية تكفينا وذات يوم طلب خالد رؤيتى، وفى أول لقاء بيننا سألته وأنا أجلس بجواره فى "كافتيريا" مطلة على النهر

- إيه الحاجة اللى تخليك تحافظ على بنت بتحبها

- نظرية الشوكولاتة

فضحكت وسألت :

- إيه بقى نظرية الشوكولاتة دى ؟

- البنت لما تقول أنها بتحب الشوكولاتة ده مش معناه أنى أدخل محل حلويات وأشترى عشرة كيلو شوكولاتة وأقولها "خدى على الله يطمر فيكى وارتاح بقى من الزن والسهوكة بتاع هات لى شوكولاتة عايزة شوكولاتة ."

وأضاف بطريقة ساخرة

- بالعكس ابسلوتلى، لأن رغم إنى بالفعل جبت لها اللى هى عايزاه وأكتر مما هى عايزه كمان، إلا أنى جرحت مشاعرها وبوظت اللى أنا عملته لأن البنت لما تقول عايزة حاجة بتبقى عايزة الاهتمام أكتر من الحاجة نفسها لأنها مخلوق عنده شعور لا نهائى بالاحتياج للاهتمام والحب فطبيعى يكون الأجمل بالنسبة لها انى أجيب لها عشرة كيلو شوكولاتة بس أخبيهم عنها وكل مرة أقدم لها شوكولاتاية بطريقة معينة أو فى مناسبة معينة ولو زعلانة أصالحها بالشوكولاتة ولو زعلان منها أحرمها من الشوكولاتة"، وهكذا وممكن تبدلى مكان الشوكولاتة دى بأى حاجة بتحبها البنت، البنت طفلة لازم يكون عندى لها صندوق حكايات ومفاجآت أخبّيه عنها وأطلّع منه حاجة جديدة كل فترة عشان تفضل مبسوطة وفرحانة وهى معايا وعشان احارب الملل أكبر عدو ممكن يقتل أى علاقة مهما كانت قوية .. فهمتى ؟

قلت ضاحكة

- آه فهمت قوى

- شوكولاتة

- دى بدل قشطة

- قشطة دى قدمت خلاص دلوقتى هنغير ونقول شوكولاتة.

- خالد

- أمممم

ـ قولى امتى البنت تبقى جميلة ؟

ـ لما تفتح قلبها وتحكى اللى جواها بكل وضوح، وتبقى مش خايفة ولا مكسوفة من ضعفها، بتكون جميلة فى نظرى حتى لو مش شايفها، زى أول مرة فتحتى قلبك وحكيتى لى، وقتها كنت متخيل تفاصيل ملامحك جميلة جدا، وعارف إن لسه جواكى كتير محتاجة تحكيه، وأنا مستنى اسمعه، وقابلك بكل حالاتك مهما كان اللى مريتى بيه.

أنهى كلامه ثم ضمنى إلى صدره وقبّل رأسى وكنت مثل عصفورة تحت جناح زوجها.

وبعد اللقاء الأول بيننا ازددت تعلقا به وزاد حبى له وانبهرت أكثر بشخصيته بعد أن تذوقت رقته وحنانه وخفة دمه ورقيه فى التعامل معى، وتكررت اللقاءات وتعمقت العلاقة أكثر مما كنت أظن أن تصل إليه، ونسيت تماما فارق السن بيننا، وما أجمل الحب الذي ننسى فيه أنفسنا، ومن فرط عشقى له وثقتى العمياء فيه وشعورى الدائم بالأمان معه طلبت منه ذات يوم أن نلتقى فى شقته لكى أتعرف على عالمه الخاص الذى يحكى لى عنه كثيرا، وهناك شعرت براحة غريبة منذ لحظة دخولى شقته وعشقت كل شىء فيها، كتبه، ملابسه، مرآيته الكبيرة فى وسط الصالة، الرسومات التى يزين بها الجدران، معجون أسنانه وأدوات الحلاقة، قارورة عطره، حفظت كل شبر فيها، وفجأة وأنا أجلس بجواره وهو يعد لنا القهوة شعرت أنه الرجل الذى أستطيع أن أتعرى فى حضرته وأن حضنه خلق من أجلى فمنحته ما لم أمنحه لأحد قبله، لكنى حافظت على صك إثبات الشرف أمام المجتمع، وكان هو مضطرا أن لا يطمع فى أكثر من ذلك، خاصة أنه كان صريحا معى من البداية وكان يخبرنى بمنتهى الصراحة أنه ليس لديه عمل، ولا يعرف له مستقبل، وغير مستعد للزواج منى فى ذلك الوقت، لأنه لا يملك أى شىء من تكاليف الزواج رغم أنه كان حاصلا على بكالوريوس فى

العلوم، وكان لديه الكثير من الأبحاث العلمية والأفكار لمشاريع لو أنه فى دولة أخرى لكان عقله سببا فى حصوله على حياة رغدة وثراء مريح.

وكنت من فرط إحساسى بالراحة والأمان فى حبه لم أكن مستعدة أن أضحى بسعادتى التى كنت أفتقدها ولم أشعر قط بمثلها طيلة حياتى، وكنت أثناء علاقتنا الخاصة لا ينقصنى سوى أن تكتمل متعتى معه، وكان يأتينى هاجس يوسوس لى أن أطلب منه أن يمزق صك الشرف فى وجه هذا المجتمع ويخترق حصنى لتكتمل متعتنا معا، فقد أصبح الأمل فى أن أصبح زوجة وأما يتلاشى مع مرور السنين وكونى أخت سجين وأنى أصبحت فى حكم "العانس" هذا اللقب الذى اخترعه مجتمعنا البائس الذى يخلق البؤس من جهة ثم يحتقر ويحاكم المصابين به من الجهة الأخرى فهو الجانى والقاضى دائما، لكنى بعد أن عشقت خالد كنت لا أريد لحلم الزواج الذى انتظرته طويلاً أن يتحقق إلا معه، وإن كنا لا نملك تحقيقه معا فعلامَ أتمسك بالصك الذى يثبت حقى فى الحصول على هذا الحلم ولماذا لا أترك حبيبى يمزقه؟ ومن غيره يستحق مشاركتى لحظة كسر هذا القيد الذى قُيدت به منذ أن ولدت وعشت مرعوبة من فشلى فى مهمة المحافظة عليه، وشعرت بثقل هذه المهمة وكرهت ذلك القيد أكثر، حين أصبح سببا فى حرمانى من إحساسى بالمتعة الكاملة فى حضن الشخص الذى أحببته.

وذات لقاء جمعنا بعد أول فراق بيننا، كان شوقنا جارفاً وكانت شهوتنا قد بلغت ذروتها، ولم يستطع "خالد" التحكم فى نفسه وكأنه استمع إلى حوارى الذى دار داخل نفسى واقتنع بما أثاره هاجسى من اسئلة، كنت أشعر وقتئذ بالخطر يقترب وكان عقلى منتبهاً لما كان على وشك الحدوث لكنى تركت حبيبى يفعل ما كان مقدما عليه وكأنى قررت السقوط من أعلى جبل يطل على نهر مهما كانت عواقب ذلك السقوط وفردت ذراعى وأغمضت عينىّ

وألقيت بنفسى نحو النهر واستمتعت بمتعة السقوط حتى غمرتنى المياه.

وبعد اندفاعه فى ممارسة طقوس جنون عشقه وشوقه واختراق حصنى وتمزيق صكى، فاق "خالد" من نوبة جنونه واستوعب ما حدث فأصيب بصدمة أخرست لسانه ومنعته من التعليق بأى شىء حتى التعبير عن شعوره بالأسف والندم، وعلى عكس حالته كنت بعد أن انتهى، أشعر بالراحة والسعادة، وكنت أنظر له وعلى وجهى ابتسامة، وقلت له بعض العبارات التى أردت أن أطمئنه بها وأحثه على ألا يندم أو يشعر بأى خوف لأنى لن أطلب منه أن يلتزم ناحيتى بشىء، وستظل علاقتى به كما هى بل أجمل وأفضل، لكنه كان ينظر إلى بتعجب غير مدرك لما أقوله ولعله ظن بأنى أصابنى الجنون من هول صدمتى بما فقدت خاصة حين رأى دمعات تتساقط من عينى تناقض السعادة التى أدعيها وأرسمها بابتسامة على وجهى.

كان ما حدث زلزالاً ضرب حياة "خالد" وجعله يعيد التفكير فى اشياء كثيرة، وشعر بالرغبة فى الابتعاد عن كل الناس وأولهم أنا وكان يعلم ان ابتعاده عنى سوف يصدمنى فيه ويحطمني، ولكنه كان لا يعلم وقتها ما يجب عليه فعله، ولم يقرر أن كان اختفائه سيكون دائما وإلى الأبد ويخذلنى، أم أنه سيجد حلا آخر يكمل به قصتنا ويكمل به حياته عموما وبعد أن ترك محل سكنه، ولم يعد هناك وسيلة اتصال أصل من خلالها إليه، شعرت بالصدمة وكاد الحزن أن ينهى حياتى وفكرت كثيرا فى الانتحار، لكن بصيص من أمل كان يضيئ جزء ما داخل روحى وشيئا ما كان يخبرنى دائما بأنه سيعود.

وبعد ثلاثة شهور اتصل بي "خالد" واعتذر لى عن غيابه واخبرنى أنه لن يتخلى عنى، وانه سيفعل المستحيل من أجل الزواج بي وطلب منى أن يرانى فوراً، وقتها شعرت بسعادة أكبر

من أى وصف لعودته وقراره، لكنى أخبرته أنى لا استطيع لقائه لأن أخى خرج من سجنه، ومنعنى من الذهاب إلى العمل وعاد إلى استبداده وظلمه لى، وقبل خالد التحدى الأكبر، وقرر أن يأتى إلى بيتى ويطلب يدى من أخى، وجلس أمام قاسم الذى كان أقل منه فى كل شىء إلا فى قدرته الحصول على المال، خاصة بعد خروجه من السجن، وبعد أن شرح خالد ظروفه رفض قاسم طلبه، وشعرت أنني يجب أن أكون على قدر الموقف الذي قام بها خالد من أجلى وقررت أن أمحو خوفى من أخى وأن أواجهه برغبتى فى الزواج من خالد لأنى أحبه، ولم أكن أحسب حسابا لرد فعل أخى الصعيدى الذى زادت قسوته وحِدة انفعاله بعد السنوات التى قضاها فى السجن، فكان رد قاسم قاسيا، وهددنى بقتله وقتلى وبدأ يعاملنى بشكل أقسى وأسوأ مما كان، ومنعنى من الخروج من البيت نهائيا، وقطع عنى كل وسائل الاتصال، وانقطعت عنى اخبار خالد نهائيا ولم أكن أعرف عنه شيئا وكنت أعيش فقط على أمل اللقاء به مرة أخرى.

(10)

استمرت فترة حبسى بالمنزل وتعذيبى النفسي حتى تقدم لخطبتى شخص فى آواخر الثلاثينيات من عمره، وكان من مسقط رأس أبى فى الصعيد وحين اعترضت على الزواج منه بحجة أنه أكبر منى فى السن جرحنى أخى برده القاسى

_كبير فى السن ايه ؟ انتى فاكره نفسك لسة صغيرة وعايزة تختارى اياك، وبعدين هو راجل لا يعيبه سنه ولا شكله ثم إنه كان بيكوّن نفسه عشان يقدر يتجوز بنت محترمة ومن عيلة ويبقى قادر انه يفتح بيت مش الشحات اللى كنتى عايزة تتجوزيه وعلى العموم أنا وافقت وقريت فاتحة خلاص.

وقبل ليلة زفافى قمت باجراء عملية أعدت بها نسخة مزيفة من الصك الذى فقدته، ودخل بى زوجى وحين سقطت قطرات الشرف، أمسك بمنديل ولوثه بالدم وفتح النافذة رافعا المنديل مشوحا به لأهله وأهلى الذين كانوا يقفون أمام باب البيت منتظرين إعلان نتيجة اختبار الشرف، وبعد أن رفع دليل شرفى وحسن أخلاقى، أطلقت الأعيرة النارية وسمعتهم يهنئون "قاسم" وكنت لازلت نائمة على الفراش ومع دموعى التى كانت تتساقط منى انتابنى شعور غريب حين تساءلت داخل نفسى هل أنا فى تلك اللحظة الجانى بخداعى لهم أم المجنى عليها بظلمهم لى وحرمانى من حبيبى ؟

(11)

كان زوجى فى بداية زواجنا شخصا لطيفا وكريما جدا معى وكان يعاملنى معاملة طيبة، لكنه كان لا يكف عن طلب حقه الشرعى منى، وكان يتفنن فى محاولة إسعادى أثناء ممارسته هذا الحق، لكنى كنت أثناء ذلك أتخيل خالد مكانه، وكان كرم زوجى معى وحسن معاشرته لى يجعلانى أشعر ناحيته بالذنب لأنى أخونه بالتفكير طيلة الوقت فى رجل آخر، وبدأت أعود إلى الله وأعلن توبتى له، وأحاول جاهدة أن أكف عن التفكير فى خالد، ولم أكن أنجح لكن إحساسى بالقرب من الله واستغفارى الدائم له كانا يخففان كثيرا من شعورى بالذنب.

كان زوجي يعمل بمهنتين حتى يستطيع سداد تكاليف معيشتنا، وكان يغيب عن المنزل معظم الوقت وبدأت أشعر بالملل وطلبت منه أن أعمل لكنه غضب ورفض بشدة قائلاً:

ـ لما أموت أو اتكسح إبقى اشتغلى، أنا راجل يا هند وانتى عارفة كده كويس، وعمرى ما أقبل إن مَرَتى تشتغل حتى لو وصلت إنى أشحت عشان أصرف عليها

وبدأت الخلافات تدب بيننا، وحتى حقه الشرعى لم يعد يطلبه بكثرة كما كان، ويبدو أنه شبع من ممارسته ولكنه لم يزهده، وكان يطلبه كل فترة ويؤديه بشكل روتينى سريع وليس فيه أى روح ولم يكن يعنينى ذلك وكنت ألبى طلبه كأنى أناوله كوب ماء ليشرب.

وذات يوم كانت صدمتى الكبرى حين اكتشفت أن زوجى يخوننى بعد أن رأيت رسائل بينه وبين امرأة أخرى، وكان يخبرها أنه لا يطيقنى وأنى امرأة كئيبة وعديمة الإحساس ودائما مقصرة فى حقه وأنه نادم كل الندم أنه تزوجنى، وكان يعيد معها تفاصيل لقائه بها فى بيتها أثناء غياب زوجها وأن زياراته لها هى التى تخفف عنه مشقة العمل، وكانت عشيقته تشكو له من زوجها الذى تزوجته رغما عنها.

ويومها أيقظته من نومه وواجهته بما شاهدته فضربنى وأهاننى وسبنى بأسوأ الألفاظ، فطلبت منه الطلاق لكنه رفض وأقسم أن ذلك لن يحدث أبدا، وانتظرت حتى غادر المنزل، وغادرته متجهة إلى بيتنا، وهناك لم ينصفنى أخى ورأى أنى مخطئة لأنى غادرت بيت زوجى دون إذنه، وأعادنى إليه، وبعد مشادة حدثت بينهما، هدأ قاسم وكنت فى غرفة النوم أبكى ثم سمعته يقول لزوجى

ـ كلنا بنغلط بس الحرص واجب.. خليك حريص شوية

ومنذ ذلك اليوم عشت جسدا بلا روح ولم أعد أشعر أو أتأثر بأى شىء، وكنت لا أكف عن التفكير فى خالد، وذات ليلة كنت أفكر فيه وابكى من فرط اشتياقى له، وفجأة جاءتنى رسالة منه على حسابى على فيس بوك كانت كلمات قليلة وبسيطة لكنها ردت إلى الروح "أنا عارف إنك اتجوزتى وحاولت طول الفترة اللى فاتت انى ابعد عن حياتك بس مش قادر، سامحينى .. وبجد فوق طاقتى وحشتينى" وكانت تلك هى أسعد لحظة فى حياتى وحدثته ليلتها كثيرا، وحكيت له كل ما مر بى، وطلبت منه أن ألتقى به ورتبت لزيارته لى أثناء غياب زوجى، وتوالت الزيارات ولم أعد أبدا أشعر

بالذنب، وأخذت بنصيحة أخى لزوجى (كلنا بنغلط بس الحرص واجب) وقد كنت حريصه ألا أحرم من خالد مرة أخرى.

النعش الطائر

كان أهل القرية يلقبونه بالحاج عمران رغم أنه لم ير مكة إلا فى الصور واللقطات التليفزيونية للحرم، ولم يكن سبب عدم زيارته ضيق اليد فقد كان تاجرا كبيرا، ويملك من المال ما يجعله يحج كل عام، ورغم جشعه فى تجارته ومعاملته السيئة للناس كانوا يتوددون له خشية غضبه واستخدام نفوذه وماله فى إيذائهم، ولم تكن تفارق يديه أبدا تلك السبحة الطويلة البيضاء، ونادرا ما يتأخر عن صلاة الجماعة فى المسجد، وكان يتحين الفرص التى يخرج فيها من ماله للفقراء أمام الناس ليسبحوا بحمد كرمه وعطفه، وذات يوم أثناء تواجده فى المسجد بعد صلاة العشاء، طلب أحد شباب القرية من عمران أن يذهب معه إلى بيت نسبائه ليصلح بينه وبينهم، ويعيد زوجته إلى بيته ويثنيها عن طلبها الطلاق، ووافق عمران دون تردد لأن المهمة سهلة ومعتادة ويعتبرها من أشكال الوجاهة الاجتماعية بالنسبة له.

حين وصلا إلى بيت نسباء الشاب وسمع عمران منهم رأيهم فى المشكلة، طلب منهم رؤية الزوجة ليسمع منها، ودخلت الزوجة إلى مجلسهم وكانت امرأة جميلة ممشوقة القوام فى منتصف العشرينيات من عمرها وحين سلمت عليه ووقعت عينه فى عينها، وجد فى ابتسامتها شيئا آخر غير ذلك الترحيب المصطنع، وطلب منها أن تجلس، وعرض عليها أن تطلب ما تشاء وسوف يتعهد بتنفيذه عدا الطلاق، فطلبت منه أن تنفرد به لأنها تخجل أن تحكى أمام ذلك الجمع، خرج الجميع وجلست بجواره وتحدثت بحزن وبكاء مفتعلين، وراحت تشكو له من بُخل زوجها ومعاملته القاسية وقامت بتعرية قدمها وجزء من كتفها لتحرك شهوة هذا الرجل الخمسيني الوسيم، كما حركت ثروته الكبيرة شهوتها، وبعد أن

رأته يبتلع ريقه بصعوبة، فعلمت بأن لُعاب رغبته أوشك أن يسيل تحت أقدام أنوثتها وأطلقت نحو شهوته سهما آخر قائلة :

- وياريت على البُخل فى المال بس يا حاج ده بخيل فى كل حاجة حتى الحب.. وواجباته الشرعية مقصر فيها كمان

مد يده وربت على كتفها وقال بخبث ورغبة

- ارجعى لبيت جوزك عشان خاطر مجيّتى دى وأنا تحت أمرك فى كل حاجة مقصر فيها جوزك وأى فلوس تحتاجيها أنا تحت أمرك فى أى وقت، بس خلى الموضوع ده سر بينا

ابتسمت بدلال وغنج وقالت

- أمرك يا حاج

وقبل أن يفقد السيطرة على لجام رغبته، دخلت أختها الصغيرة تحمل الشاى، وقتها استوعب عمران خطورة ما كان على وشك أن يفعله واسترد عقله من سطوة شهوته، ونادى على الجميع، وزف لهم خبر موافقتها على العودة لبيت زوجها .

بعد ليالٍ عدة من تلك الليلة سافر "خطاب" كعادته للعمل بالعاصمة، وترك "نعيمة" زوجته فى البيت الذى بناه على أطراف القرية على جزء من أرضه الزراعية، وكان على الزوجة بعد سفر زوجها، أن تدفع فاتورة ما أخذته من عمران منذ أن تم الاتفاق بينهما، وكانت تعلم أنه يقصد كل شىء حتى واجبات زوجها الشرعية التى اشتكت كذبا تقصيره فيها، والحقيقة كانت أن عطاءه دائما ما كان أقل من سقف طموحها وشهواتها وجشعها، وكانت تسأل نفسها إن كان عمران منذ اتفاقهما أرسل لها الكثير من المال الذى ادخرته دون علم زوجها، ولم يكن حتى تلك اللحظة قد نال منها رغبته، فماذا لو تذوق شهد جسدها؟ كم سيدفع وكم سيمنح؟ وماذا يحق لها أن تطلب بعدها ؟

****

بعد منتصف الليل دق عمران باب بيتها، بعد أن كان شديد الحرص على ألا يراه أحد فتضيع هيبته وتسوء سمعته، وداخل بيتها قضى وقتا من البهجة والسعادة وقبل تناوله لشهد أنوثتها أخذ حبوبا فاتحة للشهية فأكل بشراهة وعنف ولم يكن أبدا قد ذاق شهدا بهذه الحلاوة وكانت الوجبة شهية ودسمة للدرجة التى أثرت على صحته وعلى قلبه المريض الذى أجرى به عملية قبل تناولها بشهور قليلة، شعر بالتعب الشديد وخاف من موته فى فراش عشيقته، فترك لها الكثير من الأموال، وغادر بيتها، وأثناء عودته إلى بيته وقبل وصوله إليه بعدة أمتار سقط فاقدا الوعى، ولم يمر أحد لينقذه إلا بعد ساعة كاملة، حين خرج مؤذن القرية من بيته متجها إلى المسجد ليفتحه استعدادا لصلاة الفجر، ووجد عمران ملقى على الأرض، فصرخ المؤذن بأعلى صوت

- حد ينجدنا يا هووو الحاج عمران واقع على الأرض وقاطع النفس

وبعد نصف ساعة حضر الطبيب ولم يستغرق سوى دقائق معدودة فى الكشف عليه وإعلان خبر وفاته .

لم يكن أحد يدرى من أين كان عمران عائدا سوى "سالم" و"حمدان" العاطلان اللذان لا يعرفان سوى التسكع فى الطرقات ليلاً، وتتبع عورات الناس والخوض فى أعراضهم، واللذان شاهدا عمران وهو يدخل بيت "نعيمة ".

وأثناء تغسيل جثمان عمران حدث ما كان يحدث كثيراً فى شتى بقاع الأرض لكثير من البشر بمختلف عقائدهم وانتماءاتهم حين يموتون، وارتخت عضلات وجه وفك الميت ثم انقبضت عضلات وجهه فظهر وكأنه يبتسم، ولما رأى المغسل وجه عمران اندهش ولفت انتباه الشخص الذى يساعده فى التغسيل، وهتفا الله أكبر، وبعد أن تم تكفينه وستر عورته، نادا على أولاد الميت وأهله ليشاهدوا علامة رضا الله عن عمران وأن ابتسامته دليل على أنه

من أهل الجنة، وتعالت صيحات التكبير ثم تم وضعه فى النعش وحملوه إلى المسجد لصلاة الجنازة عليه.

كانت الشمس قد أشرقت، وأطلقت سهام أشعتها صوب الأرض، لكن برودة الطقس هزمت حرارتها وجعلتها مجرد أشعة ضوء خالية من أى حرارة، وأثناء حمل النعش والسير به إلى المقابر الموجودة على أطراف القرية، كان "سالم" و"حمدان" يحملان النعش من الأمام، وشعر "سالم" بالرغبة الشديدة فى قضاء حاجته وأخبر حمدان بذلك فرد عليه

- أجمد خلاص فاضل كام متر وندخل المقابر بلاش فضايح

لكن رغبته كانت تزداد فقرر أن يسرع من مشيّه، قبل أن يفقد السيطرة على نفسه، وتجاوب الثلاثة الذين يشاركونه حمل النعش مع سرعته، لكن فجأة هتف أحد الاثنين اللذان خلف حمدان وسالم

- يا بركة سيدنا النبى النعش طاير والله كأنى ما شايل حاجة.. الله أكبر الله أكبر

وهتفت جموع الناس المشاركة فى تشييع الجثمان "الله أكبر الله أكبر"، نظر سالم إلى حمدان وكتما ضحكهما، وبسبب تشتت تفكير سالم وتركيزه فى تنفيذ رغبته فى تلبية نداء الطبيعة، تعثر فى حجر صغير، فسقط وسقط النعش ومرت دقيقة صمت ثم فجأة تعالت الصيحات بالتكبير وقال أحدهم

- يا سبحان الله النعش وقع جنب أرض الحاج عمران اللى لسه شاريها من شهرين .. مولانا اختار مكان دفنه يا اخوانا دى علامة وأمر ولازم ننفذه إياكم ومعصية أولياء الله الصالحين.

كانت تلك الأرض على بعد امتار قليلة من بيت "نعيمة" التى كانت وقتها مذهولة ولا تصدق أنه مات واثناء مرور جنازته أمامها كانت تلعن حظها العثر الذى أضاع صيدها الثمين .

وبعد يومين من دفنه فى أرضه، بنى أولاده غرفة حول قبره وتم دهانها بجير لونه سماوى وكتب أعلى بابها باللون الأحمر (مقام سيدى عمران الزاتى) ثم بعد أسابيع كان أولاده قد بنوا بجوار الغرفة مسجدا وأصبح المسجد والمقام قبلة كل محتاج، وأصبح الناس يحجون إليه كل يوم ليتبركوا به ويطلبون منه أن يتوسط لهم عند الله لكى يحقق أمانيهم، واستغلا سالم وحمدان الإقبال على المقام وأطلق كل منهما لحيته، وادعيا أنهما قد اهتديا على يد مولاهما عمران الزاتى، وأصبحا بذلك أكثر المستفيدين من زوار المكان ومن عطاياهم وكان من ضمن هؤلاء الزوار والمغدقين على سالم وحمدان نعيمة التى تابت إلى الله وقررت أن تنقطع لعبادته وخدمة بيت مولاها عمران صاحب الكرامات .

وحين اقترب موعد أول ذكرى لوفاته كان الناس قد قرروا المجىء والمبيت حول المقام وجاء الدراويش يومها من كل مكان واحتفلوا بذلك اليوم بطرقهم المعتادة فى كل الموالد ثم انفض الجمع .

وذات يوم كانت عوامل التعرية ورداءة نوع الجير الذى دُهنت به غرفة المقام، جعلت أجزاء من الجير تسقط، وكان من ضمن تلك الأجزاء، جزء يحمل كلمة سيدى التى كتبت أعلى باب المقام وجزء أخر أصغر مَحى نقطة من حرف التاء فى كلمة الزاتى لقب عائلته فأصبح مكتوب على باب المقام (مقام عمران الزانى) ، ومرت أعوام ولازال الناس إلى ذلك المقام يحجون.

حمامة بيضاء

31/12/2014

6:30 pm

كانت تجلس فى غرفتها تدَّعى أنها مستغرقة فى مذاكرة دروسها الجامعية لكنها كانت غارقة فى حزنها وفجأة فتحت أمها الباب وقالت فور دخولها

- برضه مش عايزه تيجى معانا عند جدو...

- معلش يا قلبى عندى مذاكرة كتير..سلميلى عليهم

- مالك بس يابنتى ؟

- مفيش والله يا ماما إرهاق بس وقلق عشان الامتحانات

بحدسها وإحساسها كانت الأم لا تصدق أن سبب ذبول ابنتها وشرودها الدائم مجرد القلق من الامتحانات، لكنها لم تضغط عليها بالسؤال أكثر من ذلك، واستسلمت لرغبتها فى إخفاء سر حزنها وقالت

- طيب أعملك حاجة تاكليها قبل ما ننزل

- لأ يا روحى مش جعانة دلوقتى لما أجوع هاقوم أعمل حاجة أكلها

****

6:40 pm

سمعت صوت أمها وإخوتها يخرجون من البيت وصوت إغلاق باب الشقة، وتركت الكتاب من يدها وأمسكت هاتفها، وفتحت صفحة

حبيبها على الفيس بوك، وكانت تأمل أن تجده قد نشر شيئا جديدا وتطمئن عليه، لكن خاب أملها ووجدت صفحته لم يتم تحديثها منذ تاريخ اليوم الذى افترقا فيه، بعدما جرحت كبريائه وكرامته بسبب غيرتها المجنونة التى غالبا ما كانت تعبر عنها بغضب مبالغ فيه، ثم تهدأ وتراجع نفسها وتدرك أن ردود أفعالها كانت حادة وقاسية أكثر من اللازم، وتعود إليه معتذرة فيسامحها، وتكرر هذا الأمر كثيرا حتى زادت عصبيتها عن حدها ولم يعد حبيبها يحتمل أفعالها، وفى المرة قبل الأخيرة من نوبات غضبها نصحها أن تتحكم فى ردود أفعالها، وحذرها من المساس بكرامته مرة أخرى، لكنها لم تهتم بنصيحته ولا تحذيره.

وفى المرة الأخيرة كانت تنتظره فى الكلية وتأخر عليها ولم يرد على اتصالاتها، ولما وصل إليها وجدها غاضبة ومد يده ليسلم عليها فلم تمد يدها إليه، شعر بالحرج وقال مازحا ومخففا حدة حرجه

ـ معلش اتأخرت عليكى غصب عنى.. بس مدي إيدك عيب الناس بتبص عليّا

هبّت واقفة وانفجر بركان غضبها

ـ مكسوف قوى إن الناس بتبص عليك؟؟ ومافكرتش فى الحيوانة اللى مستنياك وقاعدة لوحدها والناس بتبص عليها، وأكيد قالوا إنها مش فارقة مع الأستاذ اللى مستنيّاه ومش محترمها، وطبعا اتأخرت ومش سامع اتصالى عشان كنت واقف مع واحدة.

انتبه الجميع إلى ما يدور بينهما بسبب صوتها العالى، وبعد أن أنهت كلامها أخذت حقيبتها ونظرت له بتحد وغضب وقبل أن ترحل كظم غيظه واستوقفها قائلاً :

ـ قبل ما تمشى خليكى فاكره إنى اتحملتك كتير وصبرت عليكى كتير ولازم تعرفى إن من اللحظة دى كل شىء انتهى ولو عايزة

تحافظى على حاجة حلوة كانت بينا ماتحاوليش تكلمينى تانى بأى طريقة.. لأن رد فعلى ساعتها هيخلى النهاية أسوأ من دلوقتى بكتير .

وتركها واقفة وغادر المكان قبلها، ومنذ ذلك اليوم قطع علاقته بها وبكل الأصدقاء المشتركين بينهما، وامتنع عن الذهاب لكل الأماكن التى قد تجمعهما بما فيها الكلية ولم تعد تعرف عنه شيئا.

بعد أن خاب أملها، خرجت من موقع الفيس ورمت هاتفها بجوارها على سريرها ودفنت رأسها بين قدميها المضمومتان إلى صدرها وبدأت تبكى بحرقة وفجأة قطع بكائها صوت رنين هاتفها وكان اتصالا من صديقتها

- ألو.. كل سنة وانتى طيبة يا بسكوتي

وهى تمسح دموعها ردت بصوت يجاهد محو الحزن من نبراته

- وانتى طيبة يا حبيبتى

- ايه مالك ؟؟

- تفتكرى ممكن ينسى عيد ميلادى ومش هيتصل؟

- طيب اهدى يا قلبى عشان خاطرى

بكت أكثر ولما هدأ بكاؤها تدريجيا قالت

- تلات سنين عمره ما نسى اليوم ده وعمر ما الساعة جات ١٢ إلا واحنا بنتكلم وأكون ببدأ معاه سنة جديدة من عمرى وعمر حبنا... أنا زى الليلة دى قبل ما أعرفه من تلات سنين كانت بتعدى ليلة رأس السنة زى أى ليلة عادية لا بحس بيها ولا بأول يوم فى السنة الجديدة اللى موافق عيد ميلادى .. هو بس اللى خلى لأيامى طعم ومعنى.. السنة اللى فاتت كنا زعلانين برضو بس كان زعل عادي واتصل، لكن ساعتها قولتله كنت خايفة ما تتصلش قاللى يوم ما اتصلش بيكى فى يوم زى ده، يبقى إما مُت أو بسببك بقى

مستحيل نتكلم تانى.. خايفة مايتصلش ويبقى كل شىء بينا مات بجد.

7:15 pm

كان يجلس فى غرفته منذ ثلاث ساعات وبداخله صراع بين كرامته التى تحارب غفرانه لها وتستعين بحلفائها من مشاهد فى ذاكرته للموقف الأخير بينهما، وكيف أهانته ولم تستمع لنصيحته وتحذيره، لكن شوقه كان يحارب فى صف غفرانه لها ومعه حلفاؤه من مشاهد أخرى فى ذاكرته لذكريات جميلة مرت عليهما معا، وصفات كثيرة جميلة تتحلى بها.

كان يخشى أن يحسم الصراع لصالح شوقه وتستغل حبيبته ذلك الغفران المعتاد بطريقة خاطئة وتزيد من حجم استهتارها واطمئنانها إنه لا يستطيع الاستغناء عنها وإنها مهما أخطأت فى حقه يغفر لها فى النهاية، وفى هذه الحالة لن تتغير أبدا.

هدأ الصراع بداخله قليلاً وفتح هاتفه واستعرض صورها عليه وعلى وجهه ابتسامة.

****

9:34 pm

بعد مكالمة طويلة مع صديقتها، عادت لمشاعر الحزن والندم والقلق على حبيبها، وفتحت صفحته على الفيس مرة أخرى دون جديد وبكت مرة جديدة حتى غلبها النوم، وفى منامها رأت حبيبها يدخل عليها غرفتها ومعه حمامة بيضاء شديدة الجمال والوداعة، وكان يحملها داخل قفص صغير لونه أحمر، ثم اقترب منها ونظر فى عينها وقال بحب وهو يقدم لها الحمامة البيضاء كهدية (كل سنة وانتى حبيبتى)، فرحت كثيرا بهديته واخذتها منه ومشت بها

نحو نافذة غرفتها وأخرجتها من قفصها وأوقفتها على إحدى يديها وداعبتها باليد الأخرى فقال لها احذرى أن تطير منكِ فإذا حدث ذلك لن تستطيعى استعادتها إلا بمعجزة فنظرت له وقالت مبتسمة دون أن تنتبه للحمامة فى يدها لا تقلق لن تطير.. وقبل أن تُنهى ردها كانت الحمامة قد طارت من فوق يدها إلى خارج الغرفة من خلال النافذة، نظر لها بضيق وحزن واستدار مغادرا الغرفة، نادته وهي تبكى إلى أين تذهب أرجوك سامحنى لم أكن أقصد، قال دون أن يلتفت لقد حذرتك لكنك كالعادة لا تستمعين إلا لصوتك فقط، نظرت من النافذة فوجدت الحمامة واقفة على سطح عمارة قريبة فقالت له بصوت يستجديه أن يعود عد إليّ وسوف استعيدها، رد عليها حين تستعيدينها سأعود ثم أغلق الباب ورحل وارتمت هى على سريرها تبكى.

****

11: 30 pm

على ما أنسى حاجة واحدة دى فيها يا حبيبى يجى سنين قدام
ولو أنسى معاك يوم بعديها صعب أنسى بقية الأيام
على ما انسى حاجة سوا عشناها
جايز اتعب مع نفسى ساعات
فيها لسه معاناة ومتاهة
ودى حاجة من ضمن حاجات
ياما قلت هامشى وفضلت فى مكانى
والحياة بعدك بجد مخوفانى
واللى باقى من حياتى بالأمانة
لسه شايفك أولى بيه من حد تانى

كان صوت الأغنية التى خصصتها لحبيبها على هاتفها المحمول كنغمة رنين يتردد بجوارها وهى نائمة تحلم، وفجأة استيقظت وسمعته وردت، وكانت لا تدرى هل لازالت تحلم أم أنه يتصل بها فى الواقع

- ألو

- ألو

- كل سنة وانتى طيبة

- وانت معايا

وبكت..

- بتعيطى ليه

- عشان وحشتني

- طب وبعدين واخرتها معاكى

- أنا أسفة

- كام مرة اتأسفتى وكام مرة رجعتى غلطتي بعدها

- وحياتك عندى ما هاعمل حاجة تانى

- أنا عايزك زوجة وحبيبة وأم يعنى لازم تتحملى مسئولية وتتغيرى عشان لو كنا دلوقتى ممكن نتخاصم ونتصالح لأننا حبيبين لما نبقى متجوزين ممكن تصرف من تصرفاتك دى يبقى تمنه غالى ويهدم كل شىء بينا ويبقى الرجوع مستحيل ..فاهمه؟

- فاهمة يا قلبى... فاهمة.. أنا أسفة سامحنى أنا هاعمل المستحيل عشان اتغير بس خليك جنبى وماتسبنيش تانى

- طيب ما علينا دلوقتى من اللى فات قوليلى بقى عملتى إيه يا هانم فى غيابى الفترة دى كلها... هاتى اللى عندك هاتى ما هى شكلها سنة بيضة على دماغك قولى عشان بُكرا لما نتقابل أحاسبك مرة واحدة على كله.

تضحك من بين دموعها على طريقته فى الكلام التى كانت تشتاقها بشدة

فيضحك لضحكها ويقول

- وحشتنى ضحكتك

ويصرخ فيها مازحا

- اخلصى احكى وبالتفصيل من بعد ما اتخانقنا وسبتك واقفة زى البوبى وإياك تنسى ثانية واحدة من ساعتها لحد الثانية اللى بكلمك فيها

ضحكت أكثر ولم تستطع الرد وأكمل كلامه بطريقته المازحة

- نعم .. ده على أساس انك بتكلمى سمير غانم ما تبطلى ضحك يا جزمة وتحكى فى ليلتك دى

ردت أخيرا من بين ضحكها المتزايد

- طيب خلاص هاحكى.....

****

1/1/2015

فى الموعد والمكان المحددان بينهما تذهب إليه وهى فى كامل أناقتها وشوقها لرؤيته، وتحمل فى يدها حمامة بيضاء فى قفص أحمر اللون .

القيد

كلامها له تلك المرة كان أقسى بكثير من المرات السابقة، فقد ضغطت بقسوة على ألم عجزه عن توفير شقة صغيرة تجمعه ببنتها بعد مرور أربع سنوات على خطبتهما، ورغم عمله بمهنتين ليوفر تكاليف زواجه لم يكن المبلغ الذى يدخره من دخله الشهرى منهما يكفى لربع ثمن شقة صغيرة ومتواضعة فى حى شعبى، خاصة بعد مصاريف زياراته وهداياه لخطيبته وأسرتها كل شهر.

وفى تلك الليلة غادر "عمر" بيت نسبائه وهو يكاد ينفجر من شدة الغيظ والإحساس بالعجز خاصة بعد نظرة الشفقة التى رأها فى عينى خطيبته أثناء كلام والدتها، وصل إلى محطة المترو واستقل أحد القطارات ووقف شارداً حزيناً بجوار باب النزول فى إحدى عرباته، وبعد أن قطع القطار مسافة محطتين فجأة أخرجه من شروده شيخ سأله بلهجة بدوية

- انجولك يا ولِيدى فاضل جد إيش على محطة العتبة

- محطة العتبة ؟! المفروض كنت تركب الاتجاه التانى يا والدى انزل بقى المحطة اللى جايه وعدى للرصيف المقابل واركب من هناك وانزل بعد أربع محطات

- ارحم الله ولديك يا وليدى

كان الرجل البدوى يجلس مقابل باب النزول الذى يقف "عمر" بجواره، وفى هذه اللحظة كان القطار قد دخل المحطة التالية، وطلب الرجل من المرأة العجوز المصاحبة له أن تنهض وبدأ يسحبها من يدها برفق وكانت حركتها بطيئة، توقف القطار على الرصيف وفُتح الباب وغادر الرجل العربة، وبقيت نصف يده ممتده داخلها تسحب المرأة وفجأة اغُلق الباب وسحب يده للخارج بشكل لا إرادى، وتحرك القطار وبدأت السيدة العجوز بالبكاء كأنها طفلة

صغيرة، رجف قلب "عمر" لمشهد بكاء العجوز، ووجد نفسه بتلقائية يحدثها بلهجة حاول أن تكون قريبة من لهجتها البدوية كى لا تشعر بغربة أو خوف.

- لا تخافى يامّه لا تخافى ليش تبكى.. أنِى هنزل معكى المحطة الجاية، ونعدى للرصيف التانى، ونرجعوله، معك تليفون أو حافظه رقمه؟

- لاه يا وليدى .. أنِى ست كَبيرة ولى ٦٠ سنة ما غادرت الوادى قاللى تعالى يا "عيشة" ادلعك وانزلك مصر قلت له بعد العمر ده كله يا "عيّاد" ؟ وأنت تدري إنى أخاف من مصر من يوم تاه فيها أخوى من بوى حين نزلوا يحضرون جنازة عبد الناصر.. مصر قاسية وأنيابها واعرة يا وليدى على الغلابة امثالنا وأنا اتعودت على الوادى وناسه الطيبين

كانت كلماتها الأخيرة قد أصابت جرح "عمر" الذى ينزف كونه أحد "الغلابة" الذين تفترسهم مصر ولا يجد فى حضنها مكان له فقال

- عندك حق يامّه مصر قاسية وواعرة

- لا تتركنى يا وليدى أكسب فيا ثواب

- مش هسيبك يامّه غير لما نرجع لـعم عيّاد

- إن شاء الله تسلم يا وليدى

وقبل أن يتوقف القطار، طلب "عمر" من العجوز أن تقترب من الباب كى لا يتكرر ما حدث مرة أخرى، ونزلا فى المحطة التى كان من المفترض أن ينزل فيها "عمر" لأنها الأقرب لبيته، لكنه وفى بوعده مع العجوز وظل معها، لإنسانيته المعتادة فى المواقف المشابهة، ولأنه شعر بأن الله أرسله لأجل هذه العجوز المسكينة، التى لم تستطع التجاعيد التي نحتتها السنين على جبينها أن تمحو

جمالها، وكان زيها البدوي يزيدها وقاراً وسحراً، وبدأت تشعر مع "عمر" بالألفة والآمان كأنه أحد أحفادها وحدثته بصوتها الرقيق

ـ تعرف انت فيك شبه من عزام وِلد ولدى "كساب" ويمكن جرِيب من عُمرك، لكنه غادر أبوه والوادى واتغرب لأجل المال اللى حُبه عَمَاه، وراح يشتغل فى بلاد الخلايجة ، ترك عزوته وأهله وأصله اللى يحسدوه عليه الناس، وراح يخدم وينهان عشان المال، جلت له ليش يا ولدى تتركنا وتترك أرضك وزرعك وتروح تخدم الأغراب، أخدم نفسك وناسك وأهلك دول أَولى بيك، جال لى يا حني زرع إيش وأرض ايش أنت اصلك ما رأيتى الدنيا خارج الوادى ايش تكون؟ جلت له وانت اصلك عمرك ما رأيت الوادى طول عمرك تنظر برّاه؟ وإن كنت كبرت على فاسك وفاس أبوك وجدك بلاش تزرع افتح لك مشروع ولا اتعلم صنعة واصنع وأملا قلبك بالرضا ترضا يا وليدى

ـ عزام معذور يامّه الدنيا اتغيرت وبقت مليانة مظاهر ورغبات وكل شىء فيها أصبح محتاج فلوس كتير .

ـ الشي اللى تزهده يا وليدى يفقد قيمته ويرخص ويجرى وراك وانت سيد قلبك وحاكمه لو أسرفت فى حب شي واشتهيته يملكك ويصبح بحُبك له سيدك واللى تِملك له بديل يصبح وجوده مثل عدمه، وايش الفرق يا وليدى بين نومه على ريش نعام ونومه على حصير خشن المهم تغفى يا ولدى وانت مرتاح البال لا خايف ولا عليك لحد مال، بس أنا جلت له رُوح لأنه ما يعرف قيمة كلامى غير لما يوصل لشهوته وينام على ريش النعام ويدرى إنه كان حلو لأنه ما كان موجود، وحين ما اتوجد أصبح هو والحُصُر زى بعض، الاتنين موجودين، ومش بعيد يدور عن غيرهم هما الاتنين، أصل يا وليدى الإنسان اتولد طماع دايم يدور على المفقود ويسيب الموجود.

كان "عمر" يتأمل كلامها ويسرح فى أزمته التى يعيشها ويسأل نفسه لماذا لا بد أن تكون شقة فى برج مرتفع به مصعد كهربائى حتى وإن كانت مساحة الشقة نفسها ضيقة؟؟ لماذا يجب أن يكون الأثاث والشبكة والمهر بمبلغ وقدره ؟؟ حتى تتباهى أمى وأم العروسة أمام أقاربهما، ورغم أن هؤلاء الأقارب سوف يتفننون فى إخراج العيوب فيما ستتباهى به أمى وأمها سواء لحسد أو لغيرة أو لأن بالفعل هناك عيوب ولأنها أشياء مهما دفعتُ فيها من جهد وتعب حتى أوفرها هى رخيصة بالنسبة لأخرين، ماذا لو كانت خطيبتى وأهلها يوافقون أن نسكن فى أى مكان وبأى أثاث متاح مستعمل أو جديد لمَ كل هذا التعقيد الذى توارثناه بل وزدناه حتى أصبح سجننا وأصبح الحلال شبه مستحيل؟

حين عادا إلى المحطة وجدا عيّاد واقفاً فى انتظارهما بزيه البدوي وقامته العالية وجسده النحيل وعلى وجهه ابتسامة رقيقة وفتح ذراعيه وهو ينظر فى عين زوجته التى بادلته الابتسامة ونظرت إليه بخجل ساحر وطفولى، وحينما أصبحت أمامه ضم يديه ورفعهما واحتضن رأسها وقبّلها وقال

- رايفت عليكي يا عيشة، تريدى تتوهى منى؟ زهدتى عيّاد إياك؟

ضحكت عيشة ولم ترد ونظر عيّاد إلى " عمر " قائلاً

- تسلم يا وليدى تِعبناك

- لا ابداً العفو لا تعب ولا حاجة، انا بس كنت خايف تركب وتيجى ورانا ونفضل نلف حوالين بعض خاصة إن مفيش تليفون مع الحجّة

- عيب يا وليدى هو انا عبيط عمك عيّاد راجل كبير وواعى، وحين سألتك انت دون عن اللى واجفين كان لأنى رأيت فى عينيك طيبة تشبه طيبتنا، وحين نزلت وتركت أمك "عيشة" ما خفت عليها

لأنى سيبتا مع راجل، وما شكيت انك ممكن تتخلى عنها وتسيبها، ووجفت مكانى مطمن إنها معاك ولابد راجعين

- بس مصر قاسية وواعرة يا عم أبوالوفا على رأى الخاله "عيشة"، ومش دايما نقدر نتطمن للناس من شكل الوشوش لأن ناس كتير وشوشها من بره حلوة لكن ارواحهم من جوه بيوت اشباح

- مش مع اللى زيي يا وليدى احنا الصحرا علمتنا كتير

- بس شكلك بتحب الخالة عيشة يا عم عيّاد

ضمها عيّاد إليه وقال وهو ينظر فى عينها بحب

- عيشة دى سعادتى ودنيتى .. تعرف؟ عيشة كانت أجمل بنات الوادى وهى صغِيرة، وللحين هى ست الوادى، زمان .. كانت مثل تفاحة صابحة على الشجر كاسيها الندى ساعة فجرية، وكنت أحس إنها تقولى اقطفنى يا عيّاد، وقطفتها، وخمسين سنة زى ما هى صابحة ومهما أكل منها ما اشبع أبدا وإن شبعت أجوع تانى، خمسين سنة رغم إنها تتعصب على كتير ودماغها ناشفة إلا إن قلبها أبيض زى الحليب ولا عمرى حسيت بهيبتى قلِت جوّاها ولا هيبتها ومعزّتها قلِت جوّاى

فجأه بدأت إشارات انذار اقتراب قطار من دخول المحطة تصدر أصوات مزعجة ومتقطعة فسأل "عمر "

- انتم رايحين فين يا عم عيّاد

- احنا ماشيين الحسين وولاد الحلال قالوا لنا تركبوا مترو تنزلوا العتبة وتركبوا من هناك للحسين

- خلاص يبقى أوصلكم وأطمن عليكم وابقى أرجع

- ما نريد نتعبك يا وليدى

- بالعكس ياعم عيّاد أنا مبسوط إنى قابلتكم النهاردة

وبعد زيارة مقام الحسين جلسوا فى مقهى بجوار المسجد، وفتح عمر قلبه لهما وحكى عن مشكلته، وعلق عيّاد مازحا مع عمر بعد أن انتهى من سرد مشكلته مع خطيبته وأهلها

- هيت خطيبتك وتعالوا عيشوا معانا فى الوادي والمبلغ اللى انت وفرته ومش جادر اتجيب بيه بيت فى البلد الواعرة هضى، يجيب لك فى الوادي عندنا بيت واسع محوط بسور وتجدر تِشتغل هنك وتكسب أحسن من هنا لأن الوادي ناقصه مهن كتير ومصاريف الحياة عندنا ابسط وارخص من هنا بواجد .

أعجب "عمر" بالفكرة وتحمس لها رغم أن عيّاد قالها على سبيل المزح وبدأ "عمر" يسأل عن تفاصيل إمكانية تنفيذها، وأبدى عيّاد استعداده الجاد لاستقبالهما وتوفير السكن لهما لكنه صارحه بأن الحياة فى الوادى ليست سهلة ولها عيوبها ايضاً، وصعوبتها تزداد على من أعتاد سكن المدينة.

قرر "عمر" أن يفعل المستحيل من أجل تنفيذ فكرة الرحيل إلى الوادى، وأصبح لا يرى غيرها بديلا ليحقق حلمه ويتزوج حبيبته، وبعد أن ودع عيّاد وزوجته، اتصل بخطيبته وحكى لها كل ما حدث، ورفضت الفكرة تماماً وظنت أنه يهذى، واعتبرتها فكرة مستحيلة التنفيذ لكن "عمر" رمى بورقته الأخيرة فى النقاش وقال :

- انتى عايزانى فعلاً فى أى مكان وبأى حال ولا عايزانى بس بشروط معينة؟ ده أكبر اختبار لحبك ليا .. خدى قرار واتحملى مسئوليته أياً كان، لأن الواضح إن سواء شئت أم أبيت، لو رفضتى الفكرة دى، وبعد اللى قالته والدتك النهارده، اعتقد انك قريب هتضيعى منى وتكونى لغيرى لأنى لازلت عاجز عن توفير طلبات جوازنا حسب أوامر أهلك والعادات والتقاليد.

بعد ثلاثة شهور من المشاكل والمحاولات فعلت فيهم خطيبته كل شىء من أجل إجبار أهلها على الموافقة .. وافقوا، وسافر "عمر" إلى الوادى واشترى المنزل وعلم أن أشياء كثيرة بالوادى تجعل الحياة فيه صعبة وأخبر خطيبته بها لأنها ستكون شريكته فى تحملها.

وبعد ثلاث سنوات من زواجهما كان بيتهما فى الوادى يضج بالحب والسعادة وقد صنعا منه سويا أجمل بيوت الوادى، وكان كل أهل الوادى يحبونهما ليس فقط عيّاد وزوجته اللذان أصبحا كأم وأب لهما، وبعد أن كان أهلهما يرفضون الفكرة ويحاربون تنفيذها أصبح كل فرد منهم ينتظر بفارغ الصبر أن يذهب إليهما فى زيارة لينعم بهدوء وصفاء الحياة فى الوادى بعيدا عن زحمة وقسوة العاصمة .

وذات صباح دخل عيّاد على عمر فى بيته وهو يجلس مع طفله وزوجته فى الحديقة التى زرعا أشجارها سويا وقال عيّاد وهو يضحك بسعادة

- ايش اخباركم هلوجت، جيت انجوللكم إنى مسافر نا وخالتكم عيشة مصر، وافجت بالعافية بعد ثلاث اسنين من يوم ما جابلناكم ما كانت اتريد تطاوعنى

نظر "عمر" لزوجته وضحك وقال موجها كلامه إلى عيّاد

- ما بلاش يا عم عيّاد لا تجيب حد تانى غيرنا

ضحك عيّاد وقال

- وماله انتم جيتوا وجاء الخير كله للوادى ويا مرحبا بكل الطيبين.. انجيبلكم ايش امعاي من مصر ؟

- لأ تسلم يا عمنا، بس مفيش نزول فى فنادق المرة دى، انت الحين لك أهل بالقاهرة، وأنا هاكلّم أخويا يستناكم فى المحطة وتروحوا على البيت عندنا على طول.

وبعدما خرج عيّاد قال "عمر" لزوجته

- عارفه .. زمان، كنت بحلم بأى فرصة اهرب فيها من مصر واهاجر لأى دولة تانية واعيش هناك لكن لما جيت هنا اكتشفت انى كان ممكن اهاجر جواها .. بس الشئ اللى ناقصني هنا هو وجود كل الناس اللى شبهنا انا وانتى كل المثقفين والمبدعين الحقيقيين ونعمل عالم جديد موازى ونحكم نفسنا بقوانين نخترعها احنا تتوافق مع احلامنا ومبادئنا وافكارنا زي اهل الوادى والقبائل ما بيحكموا نفسهم بعاداتهم وتقاليدهم .. تفتكري الحلم ده ممكن يتحقق فى يوم من الايام؟

لكن زوجته لم ترد ونظر عمر إليها فوجدها شاردة

- مالك يا قمر سرحان فى إيه ؟

- بصراحة يا عمر بابا وماما وأخواتى بيوحشونى جداً وحكاية بُعد المسافة وصعوبة الاتصال بيهم بسبب ضعف شبكات المحمول أهم عيب فى عيشة الوادى ومش قادرة اتحمله أكتر من كده

ضحك عمر ورد عليها مازحا

- يا حبيبتى لولا بُعد أهلنا عن حياتنا وأمك تحديداً وصعوبة الاتصال بيها كان زمانا أنا وانتى مطلقين من زمان، يعنى ده أهم مميزات الوادى مش عيوبها

ضحكت بصوت عال ولكزته فى كتفه فضحك أكثر وضمها إليه.

يوم الخبيز

فى وقت الضحى استيقظت "وفاء" كعادتها كل يوم فى ذلك البيت الفسيح الكئيب، وبدأت القيام بأعمالها المنزلية وأثناء قيامها بها كانت تبكى حظها المشؤوم الذى ساقها إلى الزواج من ذلك الرجل الذى حول حياتها إلى جحيم، بسبب شكه الدائم فى كل أفعالها، دون أدنى مبرر غير أن هذا الشك كان بسبب هروب أمه مع رجل آخر، وكان وقتها طفلاً صغيرا، وربّاه أبيه على كره أمه وكره جميع النساء، وعدم الثقة فى أية أمرأة، لأن كلهن خائنات إن وجدت إحداهن رجلاً يحبها أو يأمن مكرها تخونه فى أقرب فرصة، وبعد كل السُم الذى نفثه أبيه فى صدره وروحه، ليحميه به من شر النساء وشر حبهن، وصاه أبيه قبل أن يموت أن يتزوج بأمرأة ينجب منها طفلاً يحمل اسمه من بعده، ليظل اسم عائلتهم موجودا، ولا يذهب إرثهم لغريب، وكان حظ "وفاء" العثر أن تكون هى التى اختارها ابنه لتنجب الطفل المنتظر.

كانت "وفاء" وهى طفلة صغيرة تحلم بان تدخل المدرسة بعد التحاقها بالكُتّاب خاصة وأن الشيخ فى الكُتّاب وقتها كان يمدح عقلها وذكائها لكنها كانت مثل باقى الفتيات فى تلك القرية الصغيرة التى ولدت بها، لا تملك حق اختيار شىء، ورفض أبيها تعليمها وكانت تعرف أن عودها حين يشتد وتظهر علامات اكتمال أنوثتها سوف يتقدم أحدهم لخطبتها، ويوافق أبيها إن كان يراه الأصلح لها، ولأن أول من دق بابهم كان من قرية بعيدة عن قريتهم، وكان يستعجل الزواج ويتباهى بما يملك من جاه ومال، وافق أبيها الذى كان لفقره يظن أن المال هو نبع السعادة الوحيد فى الدنيا، وفى أقل من شهر انتقلت "وفاء" إلى سجنها الجديد الذى يتعامل فيه زوجها معها بوحشية فى كل شىء، ولا يتوقف أبدا عن الشك بها

طيلة الوقت رغم أنه لا يجعلها تفتح نوافذ البيت أو بابه إلا بإذنه وفى وجوده فقط.

وفى هذا الصباح الذى كانت تتساقط فيه دمعاتها وتتذكر عام من العذاب والظلم والقهر قضته فى ذلك البيت، فجأة استمعت الى صوت حوار خارج البيت بين رجلان

- صباح الخير يا عوضين

- خير صباحين يا عم مأمون

- ايه الاخبار يا عوضين وقعنا كام طياره كمان بشرني يا وله

- يووووه كتير يا عم مأمون ماتعدش العدد فى اللمون

- والله براوة عليه الريس عبد الناصر وجيشنا العظيم تعرف يا عوضين اهو عبد الناصر ده اللى هيمحي اسرائيل من على وش الارض ويبقى اعظم من صلاح الدين وبُكرا تقول عم مأمون قال

واثناء انصاتها لحديثهما سمعت صوت طرقات على بوابة المنزل الخشبية العملاقة، وتجاهلته فى البداية، لكن صوت الطرقات كان يزداد بالحاح ويسبب لها صداعا، وبدأت تقترب من البوابة وتحاول سماع صوت الطارق وسمعت صوت طفل صغير، فتحت له الباب لتستريح من ازعاجه، ورأت فى يده حجرا كان يطرق به الباب، وقبل أن تعرف من الطفل سبب مجيئه، نظرت إلى الشارع، لعلها كانت تريد أن تستغل الفرصة وترى كيف يكون شكل الشارع فى تلك الساعة من الصباح، لكنها رأت زوجها يأتى أمامها راكباً حماره، وعائداً من الحقل، ولما رأها تفتح الباب تطاير الغضب من عينه ونزل من على الحمار وأسرع إليها، وقبل أن تنطق بكلمة دفع الطفل بيده إلى الخلف، ودفعها هى إلى الداخل وأغلق الباب بعنف وبدأ وصلة جديدة من التعذيب والأهانة والتجريح، وكان إحساسها بألم القهر والظلم وجعه أشد وأقسى من أى ألم جسدى .

وفى مساء ذلك اليوم جلست "وفاء" تفكر فى كيفية الخلاص من الجحيم الذى تعيش فيه، وكانت تحدث نفسها " مفيش قدامى غير حل من اتنين إما إنى أتحمل لحد ما اخلف له الواد اللى اتجوزنى عشانه وأطلب الطلاق واخلص منّيه للأبد بس يجى منين الواد وأحبل كيف وانا ماعرفاش العيب منه ولا منى وهو ماراضيش يروح للحكيم، ومحكم رأيه أن العيب منى وقاللى قدامك سنة كمان لو ماحبلتيش هطلقك، لكن أنى ماقدراش أصبر ولا يوم تانى وأفرض صبرت وخلفت بنت ولا حتى خلفت واد أصبر كمان سنتين لحد ما أرضعه، طب وانسى كيف ضنايا وكيف اطمن عليه مع أبوه المجنون ده،يبقى مفيش غير الحل التانى الانتحار أو قتله بس أنى أجبن من إنى أقتله، وحاولت كتير أموت نفسى ماقدراش، مع أنى فى كل الحالات ميّتة.

وظلت تبكي حتى خطرت لها فكرة كان ثمن تنفيذها غاليا لكنها كانت تشعر أنها ليس لديها ما تخسره وأصرت على تنفيذها مهما كانت النتيجة لأنها تريد أن تلقنه درسا لا ينساه أبدا ويظل يعذبه طيلة حياته وينتقم لها منه، واختارت موعد تنفيذ فكرتها يوم الخبيز.

كانت "وفاء" فى يوم الخميس من كل أسبوع تخبز الفطائر والخبز فى غرفة خارجية فى آخر البيت بها فرن من الطين وكانت تربى بها الطيور والمواشى، وفى يوم الخبيز الذى اختارته لتنفيذ خطتها كان زوجها كعادته يجلس فى غرفة النوم يدخن النرجيلة ويستمع الى المذياع، وبدأ انتقامها حين خرجت من غرفة الخبيز واتجهت إليه وكانت تدارى خوفها وارتباكها، وكانت دقات قلبها تزداد سرعة كلما اقتربت منه، لكنها كانت تحفز نفسها على المضى قدما فى تنفيذ خطتها لأن الخوف أو التمسك بحياة مثل التى تعيشها ما عاد يجدى، ووقفت أمامه وهى ترفع يديها المتعاصتين بالعجين، وطلبت منه أن يرفع ملابسها وينزع عنها لباسها الداخلى

بسرعة لأنها تريد أن تقضى حاجتها ولا وقت لغسل يدها، وكانت تدبدب فى الارض بقدميها كأنها طفل صغير، فى البداية استغرب طلبها واستنكر ما تفعله لكن مع الحاحها استجاب لها وفعل ما طلبته منه، وغابت ما يقرب من ثلث ساعة وعادت له ولبست ما نزعه عنها، وهى تنظر له نظرة شعر أنها تدل على أن شيئاً ما تخفيه او سيحدث، جلست بجواره، ونظرت فى عينيه ورأت أيام جحيمها معه، وسألته بتحد وقوة شخص يرى الموت يقترب ولا يخافه لأنه مصيره الذى لا مفر منه

- انت ليه اما تعاملنى بالظلم والقسوة دول وتشك فيا طول الوقت رغم انك عمرك ما شفت منى حاجه بطّاله

- لولا قسوتى وشدتى معاكى كان زمانك خنتينى لأنك مرَه وكل النسوان خاينين

- بس مفيش حاجة فى الدنيا تمنع واحدة عايزه تخون إنها تخون والقسوة ممكن تكون سبب للخيانة مش للخوف من فعلها

- مادام الراجل شديد وصاحى لمَرته وألاعيبها وخُبثها وقادر يحكمها ويخليها ماتشوفش حتى الشمش يستحيل تقدر تخونه

- زيك إكده يعنى

اعتدل فى جلسته وسحب نفسا من نرجيلته وقال بفخر

- لو كل الرجالة زيى ماكنش فيه مَره قدرت تخون جوزها

فقالت له بابتسامة ساخرة

- بس أني خنتك

صعق من كلمتها وأمسك بتلابيبها سائلاً بغضب

- خونتينى كيف يا بنت الكلب ومِتى حصل ؟

قالت وهى لأول مرة لا تخشى عواقب غضبه بل تريد أن يزداد غضبه بالشكل الذى يحقق هدفها إما الطلاق أو الموت

عصير الكتب

ـ خنتك من شوي فى الأوضة القبلية بتاع الخبيز دخّلت راجل لبيتك وانت موجود فيه من غير ما يعرف انك موجود وغرقان فى زهوك بنفسك وقاعد تسمع حفلة الست بصوت عالى،كانك الراجل الوحيد فى الدنيا وبعد ما قلعّتنى بايديك، بقيت جاهزه له.

جحظت عيناه من الغضب وكادت عروقه أن تنفجر، وبدأ يضربها بشكل هستيرى ويسألها

ـ مين هو ودخل هنا كيف ؟

لم تكن ترد على سؤاله، وكانت تبتسم للموت، مخلصها الذى أصبح يدنو منها كأنه فارس أحلامها الذى تنتظره منذ زمن وجاء على حصانه الأبيض ليخطفها وينقذها.

وأخيراً نزل الفأس على رأسها وشقه إلى نصفين، وتحررت من ذلك الجحيم إلى الأبد، وكانت روحها أثناء مغادرتها جسدها وصعودها إلى السماء تشعر بسعادة وتنظر خلفها نحو الأرض على ذلك الذى يجلس بجوار جثتها مهزوما يبكى بندم وحسرة على انهيار برج رجولته النرجسية البلهاء.

الملائكة لا يحملون الكَنب

كنت جالسا أقرأ فى شقتي التى استأجرتها قرب مكان عملى، فى أحد الأحياء الشعبية بالعاصمة، وفجأة قطع استغراقى فى القراءة صوت طرقات على باب الشقة، فتحت الباب ووجدت شخصين فى أوائل العشرينيات من عمرهما تحدث أحدهما بخجل مفتعل بعض الشىء، وبنبرة صوت مغلفة بالرجاء

- أنا محمود اللى أجّرت الشقة اللى فوق عشان اتجوز فيها ولو سمحت بس يا باشا نستأذنك ندخل عندك البلكونة عشان نطلّع الفرش بتاعى

بترحيب وابتسامة ود قلت

- آه أنت العريس.. اتفضلوا طبعا

- الله يكرمك معلش أسفين على الإزعاج

- لا أبدا لا إزعاج ولا حاجة أهلاً وسهلاً

دخلت أمامهما إلى الشرفة، ونظرت إلى أسفل وجدت فى الشارع الضيق سيارة نقل صغيرة تقف أمام العمارة وتحمل الأثاث وكان هناك شخص يقف على ظهر السيارة يناول قطع الأثاث لشخصين آخرين يقفان خلف السيارة، وكان الأثاث عبارة عن محتويات غرفة نوم، كلها مفككة، دولاب كبير، وسرير، وتسريحة وأيضا محتويات غرفة جلوس، كنبتين إحداهما كبيرة، والأخرى صغيرة، ومقعدين كبيرين، ومنضدة صغيرة، بالإضافة إلى دولاب أصغر ومن الشقة التى تعلو شقتى وهى شقة العريس كان يتدلى حبل أخضر سميك من النوع الذى يُستخدم فى ربط الأحمال الكبيرة على عربات النقل، وقفنا ثلاثتنا نتلقى قطع الأثاث من أسفل إلى أعلى، فكان أحد الاثنين اللذين بالأسفل خلف السيارة يربط قطعة

من أثاث غرفة النوم بالحبل ثم يرفعها ويسحبها جارنا وأولاده من شرفة فى الطابق الأول، بعد أن يمنعوا عنها حبال الغسيل التى فى الشرفة، ثم يأتى الدور علينا ونفعل مثلهم حتى تصل قطعة الأثاث إلى أعلى ويسحبها ثلاثة أشخاص آخرين يقفون فى الطابق الثالث المحطة الأخيرة.

بعد نقل قطعتين أو ثلاثة كانت النوافذ والشرفات بالشارع قد فُتحت لمشاهدة ذلك الحدث الذى كسر رتابة هدوء شارعنا وقلة الأحداث فيه، وفجأة تجمع عدد من الأطفال يقفون بالأسفل بجوار السيارة ويتابعون عملية نقل الأثاث، شعرت بالقلق من سقوط قطعة أثاث على رأس طفل أو أكثر، وقلت موجها ندائى للنساء والأشخاص المتفرجين أسفل العمارة

ـ حد يبعد الأولاد دى لو سمحتم، لا حاجة تفلت غصب عنا على حد فيهم

رد أحدهم بالأسفل

ـ ماتخفش ربنا يستر

بتعجب واستنكار قلت

ـ يستر ازاى يعنى مش فاهم ؟؟ احنا ناخد بالأسباب الأول عشان مايحصلش حاجة وبعد كده ربنا يستر إن شاء الله

نظر إليّ الذى حدثنى بتعجب من ردى ثم نظر إلى الأطفال وأمرهم أن يبتعدوا وظهر على طريقته ونبرة صوته وهو يأمرهم انزعاجه من طريقة تهكمى ورفضى نصيحته بعدم الخوف .

واستئنفنا عملية نقل الأثاث واستمرت حتى انتهينا من نقل كل قطع الأثاث عدا أثاث غرفة الجلوس، وكانت المهمة الأصعب خاصة نقل الكنبة الكبرى التى بدأنا بها، وتم ربطها جيدا ثم بدأت عملية نقلها التى تمت بصعوبة حتى وصلت محطتها الأخيرة، لكن الكنبة ظلت موضوعة على سور الشرفة نصفها داخل الشرفة

والنصف الآخر خارجها ولم يتم سحبها، وكنا لا ندرى ما هى المشكلة التى تعوق دخول الكَنبة، حتى صعدنا إلى أعلى وعلمنا أن قضيب من الحديد مثبت طوليا بين سور الشرفة وسطحها ويقسمها إلى جزأين كأنها شرفتين صغيرتين بجوار بعضهما، ويمنع دخول الكنبة، واقترح أحد أصدقاء محمود أن يتم خلع القضيب من مكانه وأمسك أحدهم بمطرقة صغيرة محاولاً خلعه دون جدوى

طلبت منه التوقف قائلاً

- بالراحة بس وبالعقل عشان اللى انت بتعمله ده مالوش لازمه وهتكسر السور كله.. هى الكنبة المفروض تدخل منين ؟

رد أحدهم

- من الشباك ده

- طيب يبقى ننزّل الكنبة تانى شوية صغيرين ونسحبها من الجزء ده ونطلعها من الجزء التانى من البلكونة اللى قصاد الشباك.

نظر الجميع إليّ نظرة إعجاب كأنى قمت باكتشاف عظيم وبدأوا تنفيذ ما قلت، ولكن الحلقة الثانية من مشكلة دخول الكنبة بدأت بعدما اكتشفنا أن ظهر الكنبة ارتفاعه أطول من طول فتحة النافذة ، وبدأت ملامح الصدمة على الجميع وأولهم محمود، ونظروا إليّ ينتظرون رأيى بعد حلى للحلقة الأولى من المشكلة، قلت لا يوجد حل إلا أن يأتى نجّار ويقطع الجزء العلوي من الكنبة الذى كان على شكل مثلث منحوت عليه اشكال مختلفة من الزهور، وبعد دخول الكنبة يتم لزق الجزء المقطوع بالغراء ودهانه مرة أخرى، سمع "محمود" اقتراحى ونظر إلى باقى أصدقائه كأنه يستجدى تعاطفهم من أجل معارضة فكرتى لعدم تشويه شكل الكنبة، واقترح أحدهم أن يتم خلع حلق النافذة وهو الإطار الخشبى الذى يثبّت به بابى النافذة، قلت لن يجدى هذا الحل نفعاً لأن خلع الحلق لن يوفر المسافة المطلوبة من الطول لدخول الكنبة، لكن لا أحد اهتم برأيى

وتطوع أحدهم وخلع حلق النافذة ثم حاولوا ادخال الكنبة فلم يكن ذلك ممكناً كما كان واضحاً لأى شخص يرى بعين العقل والمنطق، واقترح آخر على" محمود" أن يهدم صف واحد من طوب حائط النافذة وبذلك يوفر الارتفاع المطلوب واقنعه بأن إعادة بناء النافذة ودهانها سهل، فوافق "محمود" مغلوبا على أمره، ودخلت الكنبة بعد هدم جزء من النافذة وكان قد نالها من الخدوش ما نالها بسبب احتكاكها بحائط الشرفة وحائط النافذة.

وكنت أظن أن المشكلة انتهت إلى هذا الحد لكن المفاجأة كانت أن تلك الغرفة التى نجحوا أخيرا فى إدخال الكنبة إليها ليست هى الغرفة المقصودة لوضع أثاث غرفة الجلوس بها، وكان يجب نقل الكنبة إلى الصالة الخارجية، وكان باب الغرفة عرض فتحته أقل من عرض الكنبة وبدأت الحلقة الثالثة من تلك المأساة، وحين همَّ أحدهم باقتراح خلع باب الغرفة والحلق المحيط به كاد "محمود" أن يفقد توازنه ويقع مغشيا عليه من توالى الخسائر التى تلحق به، وبسبب وقوفه عاجزاً أمام تلك المشكلة التى لا حلول لها إلا بتشويه وهدم ما كدّ وتعب من أجل تجهيزه فى شقته واضطراره لتصليحه من جديد بتكاليف جديدة، وكنت اتابعه مشفقاً عليه وقلت له

ـ انت ازاى يا محمود ماحسبتش كل ده وأخدت المقاسات قبل ما تنزل تشترى الأنتريه

رد بحزن وضيق ونبرة ندم

ـ أنا عامل الفرش كله عُمولة عند واحد مش شاريّه جاهز

مندهشا سألته

ـ كمان عامله عند حد ومش شاريّه جاهز!! طب ازاى ماجبتش الراجل اللى عمله ياخد مقاسات الشقة ويحسب دخول الفرش قبل ما يعمله ؟؟

ـ أنا روحت قولتله عايز أنتريه كويس وعمل لى زى ما بيعمل للناس وعلى قد فلوسى وخلاص

تفهمت ما قاله بخجل عن إمكانياته المادية الضعيفة وقلت

ـ ماشى ما كلنا على قد حالنا وممكن نعمل باللى نقدر عليه حاجة تناسبنا

وفجأة قطع أحدهم حديثنا وقال موجهاً كلامه لمحمود

ـ ياعم ماتزعلش نفسك قدر الله وما شاء فعل

قلت مبتسماً

ـ لا إله إلا الله وربنا دخله إيه بس فى عدم دخول الكنبة ويقدّر ليه عدم دخولها

ـ ازاى اللى بتقوله ده انت هتكفر ولا إيه يا أستاذ ربنا له دخل بكل حاجه

بتهكم وثقة وتحد قلت

ـ يا سيدي انا لا كافر ولا كفرت، أنا بقول عين العقل والإيمان وطبعاً ربنا له علم بكل شىء يحدث، وعارف نتيجته لأن مفيش شىء يخرج عن علمه، وطبيعي يكون عارف اللى هيحصل لانه شايف الصوره من فوق.. زي لما تبقى شايف طفل قدامك بيحاول يطول حاجه عاليه وهو لسه صغير وتبقى عارف انه مش هيطولها الا لو استخدم حاجه يوقف عليها، ومحمود راح اشترى كنبة كبيرة، من غير ما يستخدم عقله اللى وهبه له ربنا عشان يحسب ازاى هتدخل ويفهم إن ظروف شقته الضيقة غير ظروف أى شقة تانية، يبقى محمود اللى عمل كده فى نفسه مش ربنا، ولا المفروض احنا نعمل اللى احنا عايزينه وبالبركة زى ما بنقول، وربنا يبعت ملايكه عشان يصلحوا ورانا، ويعملولنا المعجزات، عشان احنا مؤمنين، ربنا عطانا عقل عشان نستخدمه، نركنه احنا

على جنب، ونقول حلها يارب من عندك، ولو ما اتحلتش نقول ليه يارب عملت فينا كده .

وقف الجميع حائرا مما أقول وكانت ثقتى التى اتحدث بها تربك الجميع، وتجعل الشخص الذي يحاورني يقف صامتا لا يدرى ماذا يقول أو يفعل، وانتظر الجميع رده، ورد بنبرة صوت بدت أضعف مما كانت، وغلفها بشىء من ود مصطنع

ـ انت متعصب ليه يا أستاذ بس إحنا مش بنتخانق

قلت بثقة وتحد أكبر اتعمد بهما أن أصدمه أكثر وأجعله يفكر فيما أقول

ـ أنا متعصب لله وللحق، مش لنفسى، وانت بتقول قدر الله وما شاء فعل، وده معناه أن صاحب المشكلة يلقى اللوم على الله، ويفكر بينه وبين نفسه إنه عقاب من ربنا، ويسأل نفسه ليه ربنا بيعاقبنى؟، وأنا عملت ايه؟، ويجى حد زيك يقول له ده ابتلاء واختبار، وخليك صابر وانت مؤمن، وهو لا عقاب ولا اختبار، والحكاية ببساطة زي قائد جيش وعطاك سلاح تدافع بيه عن نفسك قدام اي عدو تقوم انت تسيب السلاح ويجي العدو يهزمك فتقول القائد اللى اراد كده لانه عارف ان فى عدو وماقاليش، طب ما هو عاطيك السلاح ولا ينزل يحارب بدالك بالمره ؟

قال أحد الوقوف محاولاً تهدئة الأجواء

ـ صلوا على النبى يا اخوانا، إحنا فى إيه ولا فى إيه، خلونا نشوف هنعمل إيه بقالنا تلات ساعات فى تدخيل الكنبة الزفت دى، ده احنا طلّعنا أوضة النوم كلها فى ساعة

وفجأة دخل علينا الغرفة رجل فى آواخر الأربعينيات وحين رأه محمود كان كأنه غريق رأى مركبا تقترب منه بعد أن أوشك على الغرق وقال له بلهفة

- تعالى يا عم رياض شوف اللى حصل الكنبة اللى انت عاملها كبيرة ومش عارفين ندخلها

ولم يقدم رياض حلولا جديدة، وتم تنفيذ الفكرة السابقة بخلع باب الغرفة والحلق المحيط به وخرجت الكنبة من الغرفة لتصبح فى الرواق المستطيل الصغير الواقع بين الغرفة وبين المطبخ والحمام ووقفت أنتظر علامات الصدمة الجديدة على وجوههم وهم على وشك اكتشاف أن الكنبة لن تمر أيضا من الباب الفاصل بين الصالة الخارجية وبين الرواق وبعد الصدمة الجديدة وقف "محمود" ينظر للجميع إلا أنا، وسب الدين للكنب ومن صنعه، ودين الزواج ومن يريد أن يتزوج، استغفرت بصوت عال ولم يفعلها مدعى الإيمان الذي كان يحاورنى وكأنه يعذر "محمود" لأن السماء خذلته وطبيعى أن يسب دينها، لكنى بعد استغفارى التزمت الصمت وكنت لا أريد أن أثير غضب محمود أكثر، خاصة وأنى كنت مشفقا عليه من جهله وجهل من حوله ولم يكن لدى جديد أضيفه.

وكان على رياض أن يحل الحلقة الجديدة من المشكلة لكنه كان لا يجد ما يقوله أو يفعله سوى محاولات بائسة لحشر الكنبة بالقوة وتمريرها من الباب الفاصل بين الرواق الصغير والصالة الكبيرة، وكان محمود واقفا يكاد يبكى من شدة الغيظ فقال مدعى الإيمان له

- استهدى بالله يا محمود وقوم صلى العشا تلاقيك ما صلتش العشا وإن شاء الله ربك هيحلها

فقلت بحزن واسف وسخرية داخل نفسى

"قوم صلى صح.. تلاقى السبب انك ماصلتش العشا".

أثناء محاولات رياض البائسة، حضر أحمد أخو محمود ومعه أختهما ووالدتهم، وشرح محمود الموقف لهم، وقال أحمد أن الحل الوحيد لتلك المشكلة أن يتم إعادة الكنبة واثاث الصالون بأكمله إلى رياض ويتكفل هو وأخيه بقيمة ما لحق بالكنبة من أضرار أثناء

محاولات إدخالها ويصنع رياض أثاث صالون جديد صغير يناسب الشقة الصغيرة، وشعرت بالزهو داخل نفسى لأن هذا ما قلته لمحمود منذ بدء المشكلة، واحتد النقاش بين أحمد ورياض الذى اعترض فى البداية على فكرة إعادة الآثاث له، لكن أحمد فى النهاية أقنعه أن الشقة إيجار ووارد تركها فى أى وقت لأى سبب ولا يُعقل وقتها أن يعيدون كسر الأبواب والنوافذ مرة أخرى لإخراج الكنبة من الشقة وإعادة تصليح الخسائر مرة أخرى قبل تسليم الشقة لمالكها، وكان السبب الأخير الذى قاله أحمد لم يخطر ببالى رغم زهوى بعقلى.

حملوا أصدقاء محمود الكنبة وأعادوها إلى أسفل وحُمِلت مرة أخرى على ظهر السيارة، وكنت أهم بالنزول إلى شقتى بعد أن انتهت تلك المأساة لكن أحمد أقسم أن لا يتحرك أحد من الحضور من أصدقاء "محمود" وسكان العمارة قبل أن يشرب الجميع شيئا يضايفنا به تعبيرا عن امتنانه لمساعدتنا أخيه، وأرسل أحد أصدقاء أخيه ليحضر لنا مشروبات غازية وأثناء انتظارنا كان محمود يجلس حزينا على الأضرار التى لحقت بشقته وجلست أمه بجواره تواسيه قائلةً

ـ دى عين وصابتك يا ابنى والحمد لله إنها جت على قد كده

كظمت غيظى وبدوت هادئا وقلت بابتسامة مفتعلة

ـ مش موضوع عين يا حجّة هى الكَنبة كبيرة ماينفعش تدخل

ردت بحزم

ـ ما أنا فاهمة يا ابنى بس العين فلقت الحجر وعين الحسود وحشة والحسد مذكور فى القرآن

قلت وأنا لازلت أكتم غيظى وأحافظ على ابتسامتى ونبرة الود فى صوتى

ـ العين فلقت الحجر وعين الحسود دى أمثلة شعبية الناس مخترعاها مش مذكورة فى القرآن أما الآية فى القرآن بتقول و"من شر حاسد إذا حسد" يعنى احنا بنستعيذ بالله من شر الحاسد لأن الحسد والشر فى القلوب وربنا وحده مطلع عليها فاحنا بنقول يارب اكفينا شر اللى يتمنى زوال النعمة من عندنا ويفكر فى فعل شر يضرنا أو يزيل النعمة مش لأن فى شعاع بيطلع من العين يدمر اللى نملكه ويغير الأقدار ويمنع دخول الكنب .

وساد صمت يدل على أن لا أحد يفهم ما أقول، وشعرت وقتها بالغربة وانى شخص يتحدث بلغة مختلفة وسط جمع من الناس يتحدثون لغة أخرى، وقررت أن انسحب واستأذنت فى النزول إلى شقتى، وحاول أحمد أن يجعلنى انتظر قليلا حتى يأتى الشاب بالمشروبات الغازية وأتناول نصيبى منها، لكنى شكرته وصممت على النزول، فاستسلم لرغبتى وشكرنى على تعبى معهم، ونزلت إلى شقتى وأثناء فتحى لبابها كان صوت المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يأتينى من المذياع الذى اضعه دائما فى غرفة نومى بجوار فراشى وكان يتلو الآية ١٠ من سورة المُلك

وَقَالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فى أصحاب السَّعِيرِ.

صندوق الاسرار

فى ليلة صيفية مقمرة كنت مستلقية على فراشى يغطينى ضوء القمر الممتد من السماء عبر باب الشرفة التى تتراقص ستائره البيضاء مع النسيم، وكنت استجدى النوم أن يزور عيناى لكن أنَّ للنوم ان يدخلهما، وعلى بوابتهما تتساقط الدموع واحدة تلو الأخرى حزنا على ما يدور برأسى من ذكريات، عن تلك الأيام التى جمعتنى بأكثر إنسان أحببته فى حياتى، وذقت على يديه طعم الحياة، حتى بخل علينا القدر كعادته أن يكتمل حلمنا ويجمعنا بيت صغير، وعن ما آلت إليه حياتى منذ أن افترقنا.

قبل ليلة زفافى لغيره جلست مع صديقتى الوحيدة وقلت لها باكية

ـ رغم أنه لم يعد هناك ساحة للجوارى يعرضن فيها أمام العامة لشرائهن مثلما كان يحدث فى الماضى البعيد، إلا أن سوق الجوارى لازال مستمرا وتغير فقط مكان العرض إلى داخل البيوت، حيث تربى الجوارى وتسمن، وتهيأ للبيع، ويسأل شخص ما عن جارية تخدمه وتمتّعه، وتكون ذات مواصفات معينة تناسب إمكانياته، ويدله أحدهم أو إحداهن على بيت فلان الذى يملك ابنة تصلح جارية تناسب المواصفات المطلوبة للسيد الشرقى صاحب المال، ويذهب إلى مالك الجارية ويطلب رؤيتها وإن أعجبت المشترى تكلم فى سعر وشروط البيعة وإن لم تعجبه ذهب ليبحث عن غيرها، وفى حالة تمام البيعة كانوا كذبا وافتراءً يسمون عقد البيع بعقد الزواج رغم أنه غالبا لا شىء من شروط تسميته بهذا الاسم يتحقق، فلا مودة ولا رحمة ولا يحدث أى زواج بين طرفى العقد بالمعنى الحقيقى الذى يجعل كل منهما يصبح جزءً من حياة الآخر ويلتصق مصيره وقدره به، وكل ما هنالك هو ذلك الالتصاق الذى يحدث فى دقائق معدودة يصبح فيها طرفى العقد زوج من

الجسد يلتصقان ببعضهما، وأولى بالناس فى تلك الحالة أن يسمونه عقد امتاع الرجال أو عقد بيع جارية .

ربتت صديقتى على يدى مواسية لكنى أكملت باكية

_صحيح أن حبيبى لم يكن يملك الثمن الذى حدّدته عائلتى مقابل ما صرفوه على أكلى وشربى وملابسى وتعليمى، لكنه رغما عنهم منذ أن عرفته وأحببته أمتلك قلبى وروحى

****

وفى ليلة الدخلة، الليلة التى يتحقق فيها الشرط الأخير للبيعة وأن يجد المشترى الجارية ليست مستعملة وبختمها الربانى حتى لا يكون فى البيعة غش أو خداع، كان الخوف من مالكى الجديد وإحساسى بعدم الأمان معه يزيد من ارتباكى وخوفى من العلاقة الجنسية ويتردد بداخلى السؤال المخيف كيف سيتعامل هذا الشخص مع جسدى، وبدأت العلاقة ولم أنتبه أثناء العلاقة إلى أن ما يجعلنى لا أستطيع التنفس ليس فقط ذلك الجاثم فوقى كفيلٍ ضخم، بل أن رائحة فمه الكريهة التى لا تطاق، كانت سبب اختناقى، لكن شعورى بالاشمئزاز من العلاقة ككل وقتها طغى على أى أحساس آخر، وكل ما تمنيته وقتها هو انتهاء ذلك الكابوس، الذى تعامل فيه مع جسدى كأنه لحم دجاج يلتهمه بشراهة وعجَل بعد جوع وحرمان، دون اهتمام بى أو بمشاعرى، ودموعى التى كانت تنهمر منى، ولم يكن يرى سوى رغبته فى تحقيق أقصى متعة من الجارية التى دفع فيها مبلغا كبيرا من المال من أجل سد جوع شهوته لا أكثر ولا أقل، وشعرت وقتها بالرغبة الشديدة فى الصراخ بكل ما أوتيت من قوة والنداء على حبيبى ليأتى إلى وينقذنى لكنى كنت أعلم أن مهما كانت قوة صراخى فلن يصل صوتى أبدا.. وكتمت صرختى.

ليلتها فرح مالكى أن البيعة كانت دون غش ووجد الختم الربانى كما خُلق، والبضاعة سليمة لا ينقصها شىء، وليته علم أن أهلى باعوا له جسدا دون قلب أو روح.. وأنه أحمق.

****

وبعد كوابيس متتالية فى ليالى عديدة أخرى، كنت اعتدت طريقة مالكى فى تناول وجبته من روحى وكرامتى فى وعاء جسدى، وكنت بعد كل مرة أشعر بالاشمئزاز وأنا أغتسل، كأنى أغسل وعاء أكل فيه رجل مقزز وبصق داخله عدة مرات بعد أن انتهى، وبدأت أتعايش مع كونى مجرد إنسان آلى مهمته إعداد المهام المنزلية بديلا عن الخادم التقليدى وليتنى بالفعل لم أكن من لحم ودم ولا أملك ما يجعلنى وعاء بالاضافة إلى كونى خادمة، ورغم ذلك لم أستطع اعتياد تلك الرائحة الكريهة التى يثيرها فمه وأشمّها من أنفاسه كلما اقترب منى.

يوما ما شكوت لصديقتى سوء معاشرة مالكى وهمجيته ورائحة فمه التى لا تطاق، فنصحتنى أن أرضى بنصيبى وقدرى، وألا أخبر زوجى بشكوتى لأنه كأى سيد شرقى سيعتبر شكوتى إهانة لرجولته وتجريح فى كبريائه وكرامته

وفى غرفة بعيدة مهجورة داخل روحى كانت كرامتى تهتف وأين حقى أنا؟؟ لكنى ما عدت أهتم بها أو أسمع صوتها واستسلمت لحكم حبسها منذ طفولتى ولا أدرى متى جعلونى سجّانة على بوابة روحى ومسئولة عن منعها من إصدار أى صوت.

كان من الصعب على جارية شرقية أن تشتكى من عيب فى سيدها حتى وإن كان العيب واضحا وضوح الشمس فكتمت شكوتى وعشت كوابيسى مستسلمة لما أخبرونى بأنه قدرى .

حاولت طلب الطلاق منه أكثر من مرة لكنه رفض، لم أكن أدرى كيف كانت رجولته المتضخمة وكبريائه الشرقى المزعوم يجعلانه

يرتضى أن يجبر أمرأة لا تريده على العيش معه، وكان أهلى يعارضون طلبى خوفا من فضيحة حملى لقب مطلقة، ومرت سنوات لم أعرف كيف مرت وأنجبت طفل ثم آخر وأصبح الرد الدائم على طلبى تحملى لأجل طفليكِ.

****

كانت قصتي مع حبيبي تقليدية فى نهايتها كمعظم القصص التى يفرمها هذا المجتمع فى مفرمته اليومية بتروس عاداته وتقاليده وجهل الآباء والأمهات، لكن أحداث قصتنا أبدا لم تكن كذلك، وكان كل ما بيننا خارج حدود المنطق والعقل والمجتمع الذى كنا نتمرد على قوانينه وأفكاره دائما منذ أن نضج عقلينا، وحين جمعنا ذلك التمرد الجامح خلقنا عالما موازيا لنا وحدنا مارسنا فيه طقوس حبنا وجنوننا.

لم تكن الليلة الأولى من ليالى شوقى إليه لكن الحنين سافر بى فى تلك الليلة القمرية إلى ذكرياتى معه، وتذكرت لهيب شفتيه الذى كان يذيب به روحى ويدغدغ مشاعرى، وكيف كان يعتصرنى بين ذراعيه اشتياقا، ويدللنى كطفلة لا تستحق سوى السعادة، ويفهمنى دون أن أتكلم، ويلبى طلباتى قبل أن أطلبها، ويخطف عقلى بجنونه ومفاجأته، قبل أن يصل خيالى لما فكر فيه ليسعدنى به، وفجأة وأنا استرجع ذكرياتى معه أخذتنى قدماى للوقوف أمام المرآة ورأيت فيها نفسى ولم أجد تغيراً كبيرا فى ملامحى الجميلة التى كانت دائما محل إعجاب الجميع، لكنى نظرت داخلى ورأيت كيف شُوهت روحى بفعل ما مر بى من قهر وكبت وحرمان وحياة بلا روح وتساقطت دموعى بحرقة، وشعرت بأن كل شىء فى ينادى حبيبى وكل خلية من خلايا جسدى وروحى تحتاج إليه فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى، كنت أحتاج إلى لمسة يديه وضمته وصوته ورنين ضحكته وطعم شوقه ولهفته، وفكرت فى الاتصال به وأن أنفذ فكرتى هذه المرة دون مقاومة أو تراجع كالمرات السابقة،

والتفت إلى الخلف ونظرت ناحية فراشى باحثة عن هاتفى، ووجدته موضوعا على الوسادة، اقتربت منه وأمسكت به وأنا أبكى ويداى ترتعشان كأنى مدمنة امسكت بحقنة مخدر، وتذكرت حبيبى وهو يخبرنى فى آخر لقاء بيننا أنه لن يغير رقم هاتفه أبدا وسيكون موجودا فى أى وقت أحتاجه فيه، لكنى قبل أن أضغط على زر الاتصال وقعت عيناى على صورة طفلى، وتذكرت بأنى أم وسألت نفسى وماذا بعد الاتصال وإلى أين قد تأخذك عودة علاقتك به؟ ثم بدأ صوت داخلى يحدثنى "أنتِ الآن أم ويجب ألا تخذلى طفليكِ، تعقلى فما عاد الرجوع ممكنا مهما عدتما فقد تغير كل شىء."

وهزمنى خوفى وتراجعت مرة جديدة عن تنفيذ فكرتى ولجأت كالعادة إلى صندوقى السرى وأخرجت فرشاتى وألوانى وجلست أرسم لوحة جديدة من لوحاتى السرية للحظات تجمعنى بحبيبى، وكنت فى كل مرة أكتب على ظهر كل لوحة أرسمها، كلمات تعبر عما يدور بخلدى وقت رسمها ثم أخفيها، وفى تلك الليلة بعد أن رسمت نفسى أسكن حضنه عارية كتبت على ظهر اللوحة

(كنت حبيبى ولم تر من جسدى شيئا إلا ما صنعته من أحلامك عنه، لكنى خلعت فى حضرتك أثواب عقلى وجنونى وروحى، ووحدك رأيت روحى عارية إلا من حبى لك، أما ذلك الذى أصبح زوجى ورأى جسدى عاريا وامتلكه، لم ير أبدا حتى الآن روحى لم يرانى على حقيقتى مثلما كنت معك، كانت نظرتك فقط تذيب روحى وجسدى، وأما هو فلا شىء منه مهما فعل يحرك فى ساكنا)

حبيبتك

خطبة الجمعة

يوما ما أخذتها الصدفة لدخول محل بيع الملابس الواقع فى الأطراف الشرقية للقرية التى تعيش فيها، ورأت هناك "مؤمن" ذلك الشاب الذى اشتهر بحسن خلقه وتدينه وجذبتها وسامته وجسده الممشوق وزادها إعجابا به خجله وهروبه من عينيها، وتحركت بداخلها الرغبة التى لا تهدأ أبدا، وتعمدت لمس يده وهى تأخذ منه بضاعته التى يعرضها عليها، لكنه انتفض كأن تيارا كهربائى صعقه، وضحكت بميوعة، وقبل أن تفتح معه حوارا وتعبر عن إعجابها به، دخل أحد الشباب عليهما، وتصنعت عدم رضائها عن البضاعة، وقبل أن تغادر أخبرت "مؤمن" أنها ستعود لتسأل لاحقا عما تريده، وكان الشخص الذى دخل عليهما أحد أصدقاء مؤمن الذى يأتى بين الحين والآخر ليجلس معه، وحذره من تلك المرأة المعروفة بسمعتها السيئة فى القرية واخبره أنها متزوجة لكنها من النوع الذى لا يكتفى برجل واحد، وتستغل سفر زوجها فى مصاحبة الرجال.

كان "مؤمن" بعد تلك الزيارة وكلام صديقه كلما تذكرها يستعيذ منها ومن جمالها وأنوثتها الذين حركوا بداخله نيران الشهوة التى كان يخمدها دائما بالهروب من كل ما يشعلها ويشغل نفسه دائما بالذكر والصلاة، لكن شيئا ما بداخله بدأ ينتظر زيارتها التالية، ولم يطول انتظاره، وزارته مرة أخرى واشتعلت بداخله نيران الرغبة من جديد، وتكررت زياراتها، وكانت كل زيارة تمر على مؤمن كأنها سنوات بسبب أفعالها التى تثير غرائز ذكورته، وكان يكبتها حتى يختلى بنفسه ليلا على فراشه قبل النوم، ويستحضر تفاصيل زياراتها وابتساماتها وطريقة كلامها ومفاتن جسدها ويستبيحها فى أحلامه، وتشتعل الرغبة أكثر وأكثر حتى يخمدها ثم ينام على جمر ندمه من ذنب ارتكبه وصراع بينه وبين ذاته على زيف تدينه

وخلقه وصورته أمام الناس وحقيقته بينه وبين نفسه وضعفه أمام شهوته، لكنه كان يستيقظ ويغتسل ويصلى ويستغفر حتى تعود ويعيد الكرة، وذات ليلة شديدة البرودة زارته وبلغت إثارتها له ذروتها بغنجها وإظهار مفاتن جسدها وصرحت له بأنها تريده وتنتظره فى بيتها بعد منتصف الليل ليحقق حلمه وأخبرته ضاحكة أنها واثقة من استباحته لها فى أحلامه كل ليلة، وفى هذه المرة رأت شهوته منتصبة وبارزة من جلبابه وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى شاركته فيها الخجل، وكان خجله وقتها يفوق أى مرة أخرى.

فى تلك الليلة عاش صراعاً آخر بين رغبته فى الذهاب إليها وبين خوفه من عقاب ربه فى الآخرة أو انكشاف أمره وفضيحته بين الناس فى الدنيا، وحسم خوفه الصراع ولم يذهب واكتفى بزيارته لها فى أحلامه واشتعلت شهوته حتى أخمدها وكان جمر ندمه هذه الليلة أقل لهيبا لأنه كان يشعر بأنه افتدى ذنبا أكبر بذنب أصغر وقرر أن يعامل تلك المرأة بقسوة وجفاء فى زيارتها القادمة وسيأمرها أن تمتنع عن زيارته وإلا سيخبر صاحب العمل بأنها تأتي من أجل الكلام فقط دون شراء شىء، ونام عازما التوبة عن ذلك الذنب.

وفى الصباح الباكر لليوم التالى، وكان يوم خميس وقبل موعد عمله وجد أمه توقظه وتخبره بأن صاحب العمل يريده على وجه السرعة، وكان الجو شديد البرودة، ولم يستطع أن يغتسل بماء بارد ولم يكن هناك وقت لينتظر أمه حتى تُسخن له ماء يغتسل به، فذهب وهو جُنب وأمره صاحب العمل بالسفر على وجه السرعة إلى المحافظة لكى يستلم بضاعة تأتى من العاصمة عن طريق شركة نقل ونفذ "مؤمن" الأمر على الفور، وبعد يوم شاق عاد من السفر وقام بتخزين البضاعة التى أحضرها، وعاد إلى البيت واغتسل وصلى المغرب والعشاء فقط من الفروض الخمس التى

فاتته ثم نام بعمق حتى استيقظ قبل صلاة الجمعة وفى خطبة الجمعة ذكر الخطيب حديث نسبه إلى الرسول دون ذكر سنده أو مدى صحته وقال فيه بأن من يخرج من بيته على جنابه فإن له بكل خطوة يخطوها سيئة، وصعق "مؤمن" حين سمع الحديث وظل شاردا ومرعوبا من معنى هذا الحديث الذى لو انطبق عليه لكان فى صحيفة أعماله يوم القيامة سيئات تدخله النار دون حساب، وبعد انتهاء الصلاة ذهب إلى الخطيب وسأله عمن سافر سفرا بعيد، عشرات الكيلو مترات مثلاً بالسيارة وهو جُنب كيف يحاسب؟ فقال الخطيب بحزم: مهما كانت المسافة، ومهما كانت الوسيلة التى يستخدمها فى السفر فسوف يحاسب الشخص بسيئة مقابل كل خطوة من باب بيته إلى المكان الذى يقصده، كان الخطيب حازما وقاطعا فى فتواه، وبصدمة شديدة تلقاها "مؤمن" الشاب القروى المتواضع فى تعليمه وفى كل شىء إلا تدينه الذى كان يبالغ في ممارسة طقوسه ليعوض به أمام الناس أشياء كثيرة تنقصه، وكان يقدس كل شخص يتحدث باسم الدين ويعتقد بأنه لا ينطق أبدا عن الهوى، وشعر بأنه هالك مهما فعل من حسنات ومهما استغفر فلن ينجو أبدا من النار وقد امتلأت صحيفته بالسيئات بسبب ذنبه الذى بات عليه، وخرج مؤمن من المسجد مهموما بذنبه واتجه إلى عمله، وأتته المرأة وكانت غاضبة من عدم حضوره، وحدثته نفسه بأنه لا داعى الآن لرفض دعوتها مادام مصيره إلى النار بصحيفة ذنوبه التى امتلآت، وعلى الأقل آن الأوان أن يستمتع بكل ما حرم نفسه منه من أجل الجنة التى ضاعت بسبب ذنبه، ومادام سيذهب إليها ليلا، ويكون حريصا على ألا يراه أحد، فلن ينكشف أمره ولن تنال سمعته أى فضيحة، ويتمتع بجسد امرأة جميلة لا يستطيع بسبب فقره أن يحصل على امرأه مثلها أبدا بالحلال .

وبعد شهور من انغماسه معها فى العسل المحرم، كان "مؤمن" ذات ليلة عندها، وحضر زوجها فجأة بعد أن سمع أثناء غربته عن سوء سلوكها، وكان يشك فى صحة ما قيل له، ولم يكن يتخيل أبدا أن يفاجأ بزوجته عارية فى فراشه تحت شاب فقير من قريته، وحاول "مؤمن" الهرب، لكن الزوج أمسك به واشتد العراك حتى كاد الزوج أن يخنقه فوقعت عين "مؤمن" على سكين فى طبق فاكهة كانت عشيقته قد أحضرته له قبل أن يضاجعها وأمسك بالسكين وطعن به الزوج فى جنبه طعنة نافذة ثم تلاها بعدة طعنات وسقط الزوج قتيلا .

مر عام على هروب مؤمن من قريته خسر فيه كل شئ وتعرض خلاله لشتى أنواع المشقة والإهانة والاذلال لكنه لم يك يشعر بألم مثل ألم إشتياقه لأمه وخوفه عليها وتفكيره الدائم بها وعدم علمه كيف كانت تعيش بدونه وقد كان هو سندها الوحيد فى الحياة بعد وفاة والده، وذات يوم كان يجلس أمام حجرته أسفل سلم العمارة التى كان يعمل فيها بوابا، ومر عليه ذلك الرجل الطيب ذو الوجه البشوش واللحية البيضاء وكان ساكنا جديدا بالعمارة وحين رأى مؤمن أراد أن يدعوه لصلاة الفجر لكنه كان لازال على انقطاعه عن الصلاة وتحجج بعدم استطاعته ترك العمارة وأنه سيصلى فى حجرته، وبعد اسابيع من التعامل معه بود ورحمة وأبوة طلب الشيخ من "مؤمن" أن يفتح له قلبه ويحكى له قصته وسبب بُعده عن الله، فأخبره بقصته كاملة وانفجر منه البكاء الذى كان يخفيه طيلة مدة هروبه، وبعد أن هدأ من بكائه كانت الصاعقة التى عصفت به أكثر حين أخبره الشيخ بأنه لا يوجد حديث صحيح عن النبى يقول بمثل ما قال الخطيب فى تلك الخطبة، وحتى لو كان الحديث صحيحا فأين رحمة الله وأين قوله "قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله"، ذُهل مؤمن مما

يقوله الشيخ وسأله عن مصدر ثقته فيما يقول فابتسم الشيخ ابتسامة ثقة وشفقة وربت على كتفه وقال له ناصحا

- يا ولدى يجب ألا تأخذ كل كلام يقال لك عن الدين كأنه كلام مقدس ولا كل من يتكلم باسم الدين شخص مقدس، وعليك أن تُعمل العقل فى كل ما يقال لك وتسأل وتبحث أكثر عن كل ما تحتار فيه أو يختلط عليك.

كان مؤمن أثناء حديث الشيخ له قد شرد بعيدا، يفكر فى فتوى ذلك الخطيب التى قذفت به إلى بحار الشهوة والذنوب حتى فعل كبائر الإثم وافقدته حياته الهادئة، وبعد كلام الشيخ له ونصيحته له بأن يعود إلى الله، قضى ليلة كئيبة بين بكاء وندم وحسرة ورغبة فى الانتقام من ذلك الخطيب الذى دمر حياته.

وفى اليوم التالى حاول مؤمن لأول مرة منذ هروبه الإتصال بأمه وعلم أنها على فراش الموت ولم يستطع تخيل أن تموت قبل أن يراها وخطط للسافر إلى قريته، لكنه بمجرد وصوله إلى القرية تعرّف عليه أخو القتيل زوج عشيقته وأحضر بندقيته وأطلق على مؤمن عدة طلقات سقط بها قتيلاً .

هَيام

كان " فريد " شابا وسيما فى مقتبل عمره وناجحا جدا فى عمله وكان ذلك يجعله محط اعجاب الكثير من الفتيات فى حياته، لكنه لم يكن يشعر أن بينهن فتاة أحلامه، التى يحلم أن يعشقها من أول نظرة ويشعر أنها تستحق حبه وحنانه، فرغم أن ظاهره شخصية عملية الا أن جانب آخر من شخصيته كان يحمل بداخله شخصا حالما وعاطفيا ويبحث عن الكمال فى كل شئ فى حياته وعن الحب فى صورته المثالية وكان لديه بعض الهوايات التى يمارسها فى اوقات فراغه مثل كتابة الشعر والرسم وكان يبدو احياناً لمن حوله انه شخص غريب الاطوار بسبب ردود افعاله الغريبة والغير متوقعة فى بعض المواقف.

ذات يوم دخلت عليه مكتبه إحدى زميلاته فى العمل والتى كان يُكِن لها كل تقدير واحترم، وكانت امرأة جميلة وعلى خلق وتكبره بسنوات قليلة، طلبت منه أن تتحدث معه، فرحب بها، وكان آخر ما يتوقع أن تحدّثه عنه هو إعجابها به، وشعر بإهانتها له حين صرحت له بحبها ورد عليها بقسوة وحزم وهو ينظر فى عينها بغضب مكتوم:

_أنا مش مكمل عاطفى ولا جنسى لحد يا هانم شوفى واحد غيرى واحترمى نفسك وسنك والراجل اللى انتى متجوزاه

لا إراديا وجدت نفسها ترتعش وتبكي وبذهول سألته

_ايه اللى انت بتقوله ده ؟ هو ده ردك على واحدة بتقولك إنها غصب عنها لقت نفسها بتحبك؟

_أيوه هو ده ردى زى ما سمعتيه بالظبط لأن لما تبقى متجوزة وتقولى لى إنك بتحبينى يبقى مفيش غير معنى من اتنين إما انك مبسوطة عاطفيا مع جوزك بس مقصر فى واجباته التانية معاكى

وساعتها مش هبقى حبيبك وأظن انتى عارفة هبقى إيه ؟ أو إنك متجوزة راجل قايم بكل واجباته معاكى بس مقصر شويه فى الاهتمام وكلام الغزل والحب وجايّه لى أنا العازب، الرومانسى الشاعر اللى يقدر يغرقك بكلام حب وغزل ترضى بيه غرورك ويعوضك عن اللى ناقصك.. أسف جداً يا مدام مش أنا وكلامك ليا دلوقتى إهانة لا أسمح بيها إطلاقا.

وقفت تبكى فى صمت وكانت عاجزة عن أى رد أمام كلامه الذى لم تتوقع أبدا فى أسوأ الفروض أن يكون رد فعله بهذه القسوة والتجريح وظنت وقتها أنه مجنون.

بعد ذلك بشهور تم ندبه للعمل مع مجموعة من زملائه فى إحدى المدن الجنوبية، وذات يوم كان جالسا فى إحدى المراكب الراسية على شاطئ النيل يتناول قهوته ويتأمل صفحة ماء النهر العظيم التى كانت تلمع من انعكاس ضوء شمس الظهيرة عليها وكأنها أرض مفروشة بالجواهر، وفجأة جاءت فتاة جميلة وأنيقة وممشوقة القوام وعيونها زرقاء لون فستانها الذي كانت ترتديه وسلمت على أخرى كانت تجلس فى الطاولة التى أمامه وجلست معها ودار بينهما حديثا هامسا، ومنذ اللحظة الأولى التى وقعت عيناه على ذات العيون الزرقاء دق قلبه بعنف كما كان يحلم وشعر أن "إكسير" الحياة بدأ يسرى بداخله ويُحي كل خلايا روحه وقلبه، واصبح بداخله يقين انها هى من يبحث عنها، ولاحظت الفتاة اهتمامه ونظراته إليها لكنها كانت منسجمة مع صديقتها ولم تهتم به، رغم وسامته اللافتة للنظر، وأثناء تفكيره فى الذهاب إلى طاولتهما والتعرف عليها وجدهما تغادران الطاولة والمركب، وبدون تردد خرج وراءهما، وتبعهما حتى فارقت فتاته صديقتها واتجهت الى احد الأحياء الراقية بالمدينة ودخلت بيت عتيق يقع فى منتصف شارع واسع على جانبيه مزروعة اشجار عالية.

وعاد فريد إلى مبنى الضيافة المقيم فيه مع زملائه ولم تفارقه ملامحها طيلة الوقت، وقضى ليلته يفكر كيف يستطيع رؤيتها مرة أخرى؟ وكيف يمكنه التعرف عليها فى تلك المدينة المعروفة بتعصب أهلها، خاصة فيما يخص الاقتراب من نسائهم، لكنه أصبح لا يرى إلا حلم الارتباط بها مهما كلفه الأمر.

وفى اليوم التالى ذهب إلى البيت العتيق، وظل يحوم حوله من أجل أن يراها أو حتى يلمح طيفها أو يسعده الحظ وتخرج من البيت، لكن حظه خذله، وحينما كرر محاولته فى اليوم الذى يليه لاحظ أحد الشباب قاطنى الشارع مروره ذهابا وإيابا وشعر أنه غريب عن المدينة، فاقترب الشاب منه سائلاً عن سبب تواجده فى الشارع، واعترض فريد على سؤاله وحدثت مشادة بسيطة بينهما وكان الأمر سينتهى لولا أن فريد لمح إحدى النوافذ تُفتح فى عمارة مقابلة لبيت فتاته وخرجت إحداهن تشاهد ما يحدث، ووقتها قرر أن يفتعل مشاجرة مع الشاب لعل نافذة فتاته تفتح، ويتحقق مراده ويراها، لكن الآمر تطور، وكاد أن يخرج عن السيطرة، ولم ينقذ فريد وقتها الا مرور صديق له منذ أيام الجامعة كان من المدينة، وحين تعرف على فريد وسط المشاجرة دافع عنه وتدخل بينه وبين الناس وأخبرهم بأنه ضيف وكان يبحث عن بيته، وانتهت المشكلة.

وفى بيت صديقه حكى فريد السبب الحقيقي وراء تواجده بذلك الشارع وحقيقة مشاعره وطلب من صديقه أن يساعده بأى طريقة أن يصل إلي الفتاة، ورد صديقه بعد أن ظهرت على ملامحه علامات الضيق

- اللى أنت بتطلبه ده فى عُرفنا وتقاليدنا يعتبر عيب كَبير فى حقى يا فريد ولولا أنك غريب أنا كان رد فعلى معاك اختلف وبعدين يا أخي ده شغل مراهقين واحنا كبرنا على الكلام ده عيب انت راجل متعلم ومتنور وشغال فى وظيفة محترمة

ـ أنا ماقصدش طبعاً وصدقنى أنا نيتى خير ومش قصدى ألعب أو أتسلى وأظن انت عارف أخلاقى كويس، وعشان أثبت لك حُسن نيتى وانه مش شغل مراهقين أنا عايزك تروح معايا نخطبها من أهلها أنا حاسس إنها فعلا الإنسانة اللى بدور عليها من سنين وإن هى دى اللى هتسعدنى .

ـ ولا حتى اللى عم تقول عليه ده ينفع يا فريد لو حتى انطبقت السما على الأرض مستحيل تقدر تتجوزها.

ـ ليه بتقول كده وايه اللى يمنع إنه يحصل ؟

ـ اللى يمنع إنها من عيلة كَبيره وعنديهم مستحيل بنت من بنات العيلة تتجوز غير شاب من عيلتها حتى لو اتقدم لها ابن رئيس أمريكا وجاب لها كنوز الأرض وخلاها ملكة الكون يستحيل تتجوز إلا واحد من ولاد أعمامها.

ـ يعنى إيه مستحيل وفى أى شرع ودين الكلام ده؟

ـ فى شرع عيلتها من قديم الأزل ومحدش يقدر يغير شرعهم واللى حاول قبل كِده كَتير ومحدش قدر يغيره فلو عايز نصيحتى يا ابن الناس خلِص شغلك فى البلد دى على خير وانسى اللى حصل نهائى وانسى إنك شوفتها وارجع بلدك فى بحرى واتجوز واحدة من هناك تكون من توبك وتشبهلك

ـ أنا يستحيل استسلم ولازم يكون فى حل وأكيد هلاقى الحل لأن اللى عايزه لا عيب ولا حرام أنا عايز أتجوز على سنة الله ورسوله

ـ يا فريد بلاش تكون راسك ناشفة واسمع كلامى، عِندك ده ممكن يبقى تمنه غالي

ـ يستحيل اتخلى عن حلمى بعد ما لقيته

ـ يبقى انت الجانى على نفسك وأنا نصحتك وخلاص.

بعد خروجه من بيت صديقه ظل لأيام يفكر ماذا سيفعل من أجل تحقيق حلمه بالزواج منها وطيلة تلك الأيام كان يذهب كل يوم إلى

المركب الذى رأها فيه على أمل أن يراها مرة أخرى ويتحدث معها، وكان يسير فى شوارع المدينة لعل الصدفة تجمعه بها لكن دون جدوى، وبعد أن أوشكت أيام عمله بتلك المدينة أن تنقضى، قرر أن يذهب إلى بيت أهلها ويطلب يدها، لكنه عاد من هناك مكسور الخاطر بعد أن رفض أبوها رفضا قاطعا، وكانت أجواء اللقاء مشحونة بالتوتر وشعر فريد أنه كان غير مرغوب به من بداية إفصاحه عن سبب زيارته ولولا كونه غريبا وأنه ضيفهم لكانوا طردوه شر طردة، وكان يتمنى أن يلمح ولو ظلها أثناء تواجده هناك لكن ذلك أيضا كان من ضمن المستحيلات.

انقضت أيام عمله وكان عليه أن يغادر مبنى الضيافة مع زملائه ويرحل عن المدينة، لكنه لم يستسلم واستأجر مكانا آخر يقيم فيه حتى يتحقق حلمه، وفكر فى الذهاب إلى أحد رجال الدين الذى سمع عنه كثيرا منذ وصوله إلى المدينة أنه رجل يقول الحق ويدعو إليه ولا يخشى فى الله أحدا وتحدث إلى الشيخ وأخبره بما يريده وكان حديثه كله من منطلق الدين وأن طلبه حق مشروع لا يخالف الدين والمخالفة فيما يفعله أهل الفتاة، وطلب من الشيخ أن يذهب إليهم ويقنعهم بالموافقة ويأمرهم الا يخالفوا الدين والشرع بأعراف وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، لكن الشيخ حاول إقناع فريد بالتخلى عن تلك الفكرة ونصحه أن لا يفتح النار على نفسه، خاصة أنه يستطيع أن يتزوج غيرها وليس بالضرورة تلك الفتاة ورد فريد عليه بعد أن لاحظ ملامح الشيخ التى تغيرت ونبرة صوته التى كانت ترتعش بعد سماع اسم عائلتها

- بس أنا عايز اتجوز الإنسانة دى بالذات يا شيخ ولا فى حاجة فى الدين تمنع إنى اختار واحدة معينة عن غيرها أو إنى أحب واحدة وابقى عايز أتجوزها فى الحلال ولا هى المشاعر دى مش شىء خلقه ربنا جوانا

- محدش قال فى مانع من ناحية الدين بس الدين بيقول ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه ومادام أهل البنت اللى انت عايزها مش موافقين يبقى خلاص ارضى بقدرك وشوف غيرها

- قصدك حكمهم مش قدري، وبعدين دول مش موافقين لأنهم مخترعين شرع جديد يا مولانا شرع بيقول إنها لازم تتجوز واحد من العيلة حتى لو مش عايزاه وبعدين ازاى الناس دول يبنوا الجوامع فى كل حتة ويتباهوا بفعل الخير والزكاة على الفقرا وفى نفس الوقت يخالفوا شرع الله بشرع جديد عشان ده اللى ورثوه من جدودهم ومحدش يقدر يقف يقولهم حرام عليكم حتى انت يا مولانا خايف تقولهم مع إنك ليل نهار تخطب للناس عن الحق والعدل

- يا سيدى اعتبرهم مش موافقين وخلاص وأظن من حقهم يرفضوا لأى سبب دى بنتهم وهما أحرار .

- من غير ما تاخد فرصة تشوف العريس اللى متقدم لها ويعرفوا رأيها يا مولانا ؟

- ابوها اعلم بمصلحتها وقلت لك هما احرار ولا ده كمان ضد الدين إياك؟

- والله مش عارف يا شيخ بس اللى أعرفه أن أكيد مفيش إله ينزل دين يخلى فيه إنسانة كاملة الأهلية ومخلوقة من لحم ودم ويساوى بينها وبين الجنس الآخر، وبرضو يحكم عليها تبقى زى قطعة شطرنج فى إيد أهلها يحركوها زى ما هما عايزين .

****

وذات يوم جمعته الصدفة بها أخيرا فى نفس المكان الذي رأها فيه لأول مرة وكانت معها صديقتها فاقترب منهما وأبدى رغبته فى الحديث معها ولكن قبل أن ترد على طلبه شاهده ابن عمها الذى كان متواجدا بالمكان وتشاجر معه واشتد الشجار حتى تهور ابن عمها وطعن فريد بسكين كان موضوعا على إحدى الطاولات، وقبل

أن يفر هاربا تصادف وجود أحد ضباط الشرطة مع أسرته بالمركب وأخرج الضابط سلاحه وأشهره فى وجهه واستوقفه وتم استدعاء الشرطة والإسعاف.

فى المستشفى، لم يكن الجرح نافذا وتم إنقاذ حياة فريد وبعد أن استعاد وعيه وجد الممرضة تعطيه خطابا وأخبرته بأن فتاة جميلة حضرت وتركته له، أخذ فريد الخطاب منها وفتحه وقرأ فيه "ألف سلامة عليك وأنا أسفة جدا لكل اللى حصل لك بسببى، أنا عرفت كل اللى عملته عشانى.. وعارفه إنك انسان محترم وأى بنت تتمناك لكن بكفاية كده أرجوك وارجع لأهلك وانسانى لأنك تستاهل واحدة أحسن منى بكتير واحدة تستحق تعمل عشانها كل ده.. وصدقنى أنا عارفه نصيبى وراضية بيه من زمان لان ده قدرى.. هَيام " وكانت هذه هى المرة الأولى التى عرف فيها اسمها وفهم من خطابها أنها تريده لكنها تخاف عليه من أهلها فازداد إصرارا وعزيمة وتمسُكا بحلم الزواج منها، وجاءته فكرة لمحاولة جديدة، واتصل بصديقه الوحيد بالمدينة، وطلب منه أن يذهب إلى أهلها ويخبرهم أنه مستعد للادلاء بأقوال تنفى عن ابنهم تهمة الشروع فى قتله، بشرط ان يحصل على موافقتهم على طلبه الزواج من بنتهم ويعلنون ذلك قبل الإدلاء بأقواله أمام النيابة.

وبعد محاولات واتصالات موسعة لإنقاذ ابنهم من السجن بشتى الطرق التى باءت كلها بالفشل وافق والد هَيام مضطرا على طلب الزواج من أجل انقاذ بن عمها وتفاديا لفضيحة أكبر قد تلحق بالعائلة وتصبح سببا فى خسارة العائلة فى الانتخابات البرلمانية لأول مرة منذ العهد الملكى.

لم يكن أحد على وجه الأرض أكثر سعادة من فريد حين تحقق حلمه وعاد إلى بلده ومعه حبيبته بعد أن أصبحت زوجته، وبعد ان تعافى تماماً من اصابته جاءت اللحظة التى كان ينتظرها ليطفئ لهيب شوقه إليها وكانت زوجته مستسلمة تماما له ولم تخجل أو

تتمنع كعروس، واصطدم لهيب شوقه ورغبته بجبل جليدها ولم يُذب منه شيئا، وهدأت النار ثم انطفأت والثلج كما هو.

استاء فريد من برود زوجته أثناء لقاء جسديهما، وكان يظن أن ذلك بسبب خجلها وخوفها فى أول لقاء بينهما، وبعد عدة لقاءات تالية غيّر تفاصيلها أكثر من مرة وحاول مد جسور من التفاهم والمودة بينهما من أجل علاج برود مشاعرها معه وعدم تجاوبها أو إحساسها بشىء أثناء العلاقة لكنه فشل فى أن يحرك فيها ساكنا، وكانت محاولاتها للتجاوب معه مفتعله وتثير عصبيته، وفشلت الطبيبة التى ترددا عليها وكانت تخبره أنه لا وجود لأى سبب طبى لبرود زوجته ورجحت أن يكون السبب نفسى لظروف مرت بها فى طفولتها وأثرت عليها ونصحته الطبيبة أن يزورا طبيب أمراض نفسية لكن حتى العلاج النفسى لم يثمر او يعطى ثمة أمل فى الشفاء أو إحداث أية نتيجة إيجابية، ومرت أسابيع دون جديد .

وذات ليلة كان فريد لم ييأس وأثناء محاولة جديدة كان فيها مثل بركان ثائر يقذف حممه بقوة وبعنف وبعد أن خمدت ناره وهدأت ثورته، فوجئ بأن زوجته فى سبات عميق ولم تكن تشعر بأى شىء، انفجر غيظه وراح يضرب زوجته كالمجنون ويسُبها وينعتها بالباردة عديمة الإحساس، وكان يستفزه أكثر أنها حتى أثناء ضربه لها لم تكن تصرخ أو تستغيث.

وفى اليوم التالى جلس فريد فى مكتبه وكان لازال مهموما وحزينا بسبب ما آلت إليه علاقته بزوجته وكان يحدث نفسه

- معقول تكون هى دى الإنسانه اللى حبيتها ؟ معقول تكون بنت بالجمال اللى يخطف عقل أى راجل وتبقى باردة فى مشاعرها كده ؟ طب اتجوزتنى ليه ؟ وليه بعتت الجواب اللى كان سبب فى انى أفهم إنها عايزانى ؟ طب كنت أعرف إنها كده قبل الجواز ازاى؟

دى حاجة ماتتعرفش غير بعد ما الراجل يتقفل عليه باب هو ومراته وتبقى حلاله .

وقطع حواره مع نفسه وقوف زميلته أمام مكتبه ولأول مرة نظر إلى جسدها برغبة ودقق فى كل تفاصيله وحدثته نفسه أن يعتذر عن إهانته لها حين عبرت له عن مشاعرها، وأن يبدأ معها علاقة يعوّض بها ما ينقصه مع زوجته لكنه تخلص سريعا من وسوسته ورفض فكرة الخيانة وعاد للتفكير فى "هيام" مرة أخرى كحبيبته التى فعل المستحيل من أجلها، ولام نفسه على ضربه لها، وتخيل أنها أثناء تفكيره فيها وقتئذ لا بد أنها كانت استيقظت وتشعر بالوحدة والغربة وتبكى بسبب ضربه لها، فخرج من مكتبه متجها الى مكتب مديره وطلب أذنه للانصراف، وقرر الذهاب لإحضار هدية لها والعودة الى البيت ليطلب صفحها ويضمها إلى صدره، وعزم على فعل المستحيل من أجل إيجاد حل لحالتها لأن قلبه كان لازال عامرا بحبها.

****

فتح فريد باب شقته وفور دخوله أتاه صوت أنين زوجته، فدقّ قلبه بسرعة وتوقف عقله للحظات ولم يصدق أن ما يسمعه حقيقى وأنه على بعد خطوات من رؤية زوجته عارية تحت رجل آخر وتئن من لذة متعتها معه، ذهب نحو الصوت الذى كان يأتى من غرفة النوم وامام باب الغرفة وقف مذهولاً من رؤية زوجته عارية مع صديقتها، ومرت ثوانى انقطعت فيها الأنفاس عن ثلاثتهم وكأن على رؤسهم الطير، وفجأة قطعت صديقتها الصمت وخطفت ملابسها واحتضنتها وهربت عارية إلى خارج الغرفة ومنها إلى خارج الشقة، وانكمشت هَيام على نفسها وهى لاتزال عارية إلا من خوفها وشعرت أنها على بعد لحظات من مقتلها على يد زوجها لكنه اقترب منها وانهال عليها بالضرب حتى انهكت قواه ورمى عليها يمين الطلاق وأمرها أن ترتدى ملابسها وتغادر بيته فوراً.

كانت "هيام" بعد انتهاء اجازة فريد وعودته الى عمله، بدأت تشعر بالملل والوحدة أثناء فترة غيابه ويوما ما تعرفت صدفة على جارتها ونشأت بينهما صداقة وبدأتا تبادل الزيارات فى الصباح وكانت صداقتهما فى البداية عادية حتى جاء يوم وحكت لها جارتها أثناء إحدى جلساتهما الصباحية عن علاقتها الحميمية مع زوجها قائلة.

- فى أول أيام جوازنا كانت الأمور دى فيها ملاطفة ومداعبة ورومانسية.. وكان كويس إلى حد ما.. يعنى كنت ببقى مبسوطة لكن مش للدرجة اللى محتاجه أوصل ليها لكن فجأة كل ده راح وعرفت بعدها إنه كان مش طبيعى والطبيعى بتاعه هو اللى ظهر بعدين وبقى كل حاجة بتحصل بسرعة وكأداء واجب مش أكتر وكنت وقتها مش بلحق حتى أحس بوجوده وكان لما ياخد غرضه وينسحب كنت أفضل باصّه للسقف ومذهوله واسأل نفسى معقول يكون هو ده الجواز اللى كنت صابرة ومستنيه أعيشه ؟؟ ومن وقتها بطلت انتظر حاجة من جوزى فى الموضوع ده وكرهت اللحظة اللى بيطلب فيها ينام معايا وكانت الدقايق اللى بنفذ طلبه فيها بتمر عليا كأنها سنين لأنها غصب عنى ولأنها كانت روتينية بشكل بشع.

اقتربت هَيام منها ونظرت لشفتيها برغبة وقالت:

- الرجاله طول عمرهم ماقدرينش يفهمونا سيبك منيهم لأن أحنا بس اللى نقدر نفهموا احتياجات بعض.. ونعرف ازاى نسعد بعض.. ولا ايه ؟

وبدأت علاقتهما تأخذ شكلا جديدا منذ تلك اللحظة وتوالت اللقاءات وأصبحت طقوسهما اليومية هى الثرثرة ثم مشاهدة الأفلام الجنسية النسائية، وبعد المشاهدة أو أثنائها تصنعان سويا فيلمهما الخاص.

وقبل ساعة من اكتشاف فريد سرهما كانت هَيام استيقظت من نومها وكأن شيئا لم يكن أمس ذلك اليوم ولم تفكر فيما حدث حتى حين رأت فى المرآة آثار ضرب زوجها على وجهها، وتناولت فطورها فى هدوء واتصلت بصديقتها تدعوها لزيارتها، وكعادتهما جلستا لتبادل الأحاديث عن تفاصيل ليلة كل منهما مع زوجها، وكانتا تشعلان سيجارة تلو الأخرى أثناء حديثهما، وبعد ان حكت هيام ما حدث معها علقت صديقتها ضاحكة

- بصراحه عنده حق وتستاهلي الضرب.. معقول يا هيام كنتي نايمه خالص ومش حاسه بحاجه ؟

- غصب عني.. اليوم ده كنت تعبانه فعلاً من شقاوتنا انا وانتى الصبح ومن شغل البيت

- انا مش عارفه انا بقيت كده معاكي ازاى انتي جننتيني .. بس بصراحه لما بسأل نفسي السؤال ده كنت بقول أكيد لأن حياتي كانت ناقصها الجنون والمتعه اللى حسيتها معاكي وكنت مفتقداها مع جوزي بس تصدقي لحد دلوقتي انا مش عارفه انتي ليه بقيتي كده او حتى بقيتي كده أمتى

- ماعرفاش.. كل اللى اعرفه أني من صغرى وأني تركيبتى كِدِه مفيش أى راجل ممكن يشدنى او يأثر فيّا مهما كان.. وماعرفاش سببه ايه ده أو بدايته كانت مِتى .. وماعوزاش اعرف.. بس اللى اعرفه ان فى كل مدرسة بنات دخلتها من ابتدائى للثانوى.. كنت عمبلاقى بنات زيي وكنا بنعرف بعض بطريقتنا وإحساسنا، بس طبعا صعب حد من برّانا يعرف إننا كِدِه لأن مجتمعنا زي ما انتي خابره عميرفض أى شىء غريب ويعتبره شاذ ولا بد من اعدامه لاجل ما يكون كله شبه بعضه، مع إنه أصلا مجتمع شاذ عن كل الدنيا اللى حواليه بس مداري على نفسه وبيهرب من حقيقته، وأني مش عم بدافع عن نفسى ولا عم بحاول أبرر ولا حاسه إن

طبيعتى دى تهمه لأنها مش اختيارى، أنا بس عمبقولك ان أني واللى زيي واقع موجود بالفعل.

- يعني انتي كان ليكي علاقات قبل علاقتنا دي كتير

- لاه مش كَتير هي علاقه واحده مع صديقه ليا من واحنا صغيرين ورغم ان ليا اصحاب كتير بس هي اقرب حد ليا ومع بعض دايما فى كل حاجه وحتى دخلنا كليه واحده عشان مانفترقوش بس فى فترة الجامعة اكتشفنا أنا وهى ان البنات اللى زينا أكتر مما كنا فاكرين، وكنا عمنسمع حكايات كتير جدا بالذات فى المدن الجامعية للبنات وبيوت المغتربات وكان فيهم اللى انكشف سرهم والمشرفات ستروا عليهم عشان أهليهم وفى نفس الوقت فضحوهم بين زميلاتهم وفضلت العيون تحتقرهم وتضطهدهم وفيهم اللى طلعوا ناصحين وفضلوا محافظين على سرهم

- وراحت فين صاحبتك دي دلوقتي ؟

- اتجوزت بعدي وسافرت السعوديه مع جوزها

- طب وحالها مع جوزها زيك برضو ؟

- لاه هي غيري اني اللى حاله نادره

- ازاي ؟

- معظم اللى زينا بيعيشوا حياتهم عادي وفيهم اللى عم تستمتع مع الراجل والست فى نفس الوقت بس طبعا متعتها مع اللي زيها اكبر وفيهم اللى مابتبقاش حاسه راجلها ولا فارق معاها بس بتعرف تخدعه وتمثل معاه انها كويسه ومبسوطه، وانتى خابره اغلب الرجاله الايام دي مايعرفوش حتى يسعدوا نمله بس اني بقى فاشله فى التمثيل ومابعرفش اعمل حاجه مش حساها

- طب واتجوزتيه ليه ؟

- لان كده ولا كده كنت هتجوز واني ما اخترتوش هو اللى عمل المستحيل عشان يتجوزني وبصراحه صعب عليا وحبيته كانسان

شهم وجدع وراجل بيدافع عن حلمه ورغم اني نصحته ينساني لانه يستاهل الاحسن مني بس هو أصر على حلمه وفرض على اهلى انه يتجوزني وأني مانكراش اني كنت عايزة أكون أول واحدة تكسر قانون العيلة وكمان كنت عايزة أهرُب لمكان بعيد وأشوف دنيا تانية بعيد عن الجواز من واحد من أولاد اعمامى وأفضل بعدها مدفونة فى الصعيد فى حياة عارفة تفاصيلها قبل ما تبدأ لأنها نسخة مكررة من حياة عاشتها وهتعيشها كل واحدة فى عيلتى.

ـ طب فكرتي تريحيه وتقوليله على سرك بدل ما كنتم بتلفوا على الدكاتره وشايفاه هيتجنن؟

ـ فكرت كَتير اقوله وفكرت كمان اعرض عليه يتجوز واحده تانيه بس ماقدرتش وكنت عارفه انه مش هيرتاح.

وأنهت هيام الحديث بطريقتها المرحة

ـ بكفياكي غم بقى احنا هنقضوا اليوم كله فى الحديت الماسخ ده ولا ايه عايزين نقعدوا مع بعض شوي

وبدأتا ممارسة سرهما.

عسل بالملح

استيقظت على صوت الهاتف فوجدت اسمها على شاشته، وقبل أن أرد انقطع الاتصال وفور انقطاعه ظهر على الشاشة عدد المكالمات الفائتة التى لم أسمعها أثناء نومى، وكانت اتصالاتها صاحبة نصيب الأسد منها، وبمجرد أن وقعت عينى على عددها، أيقَظتُ عقلى الذى كان لازال نائما واستوعبت أنى كعادتى نسيت موعدى معها، وأيقظ عقلى ضميرى الذى لم أكن أعرف هل كان لازال نائما أيضا أم أنه كان يشاهد من بعيد ويختبئ حتى لا يضطر لأن يشعر بوخزات اعتادها منذ أن عرفت "مروة" تلك الفتاة المسكينة التى وقفت بجانبى بعد صدمتى فى أخرى خانت ثقتى وتخلت عنى فى أقرب فرصة، لكنها تركت لى حبا لا يتخلى عنى أبدا، وكنت رغم خذلانها لي لازلت أعشقها، ولا أستطيع التنفس بدونها، ودخلت فى غيبوبة غبت فيها عن الحياة وأصبحت أحيا بين الناس آكل وأشرب وأتحرك لكن روحى فى مكان آخر بين الحياة والموت، ووقتها تعرفت على "مروة" التى كانت مثل ملائكة الرحمة وأصبحت طبيبتى وممرضتى فى تلك الحياة التى أعيش فيها كأنها غرفة إنعاش كبيرة ولا يعلم أو يشعر بمرضى احداً غيرها، وراحت تسهر على راحتى وتحدثنى طيلة الليل لكى لا أشعر بالوحدة وتتفنن فى طرق إسعادى، يوما تختار لى هدية أحبها، ويوم آخر تطلب منى الخروج معها وتختار أماكن أعشقها، أو أماكن لم أذهب إليها من قبل، وفى كل الأوقات التى نقضيها معا كانت تحدثنى عن أشياء أحب التحدث فيها مثل المسرح والسينما والسياسة، وتلقى علي النكات لكى ترى ابتسامتى، ولا أنكر أنى كنت بعد فترة قد بدأت ارتاح جدا أثناء الأوقات التى أقضيها معها لكن للأسف كان كل ما تفعله معى مجرد مسكن لا يداوى أبدا الجرح الذى خلفته التى خذلتنى، ولم تسد أفعالها النبيلة الفجوة

الكبيرة التى أحدثها غياب من كنت أعشقها، فأحيانا لا يكون الدواء فقط هو سر الشفاء بل اقتناعنا بأن هذا الدواء فيه شفاؤنا، وحين نقتنع بأن شفاءنا يتوقف على دواء معين، لن يقنعنا أى دواء آخر مهما كان مفعوله أو مهما تشابهت تركيبته مع دوائنا المعتاد.

كانت لحظة صعبة حين اعترفت لى "مروة" بحبها، أصعب ما فيها أنى لم أكن أحبها، لكنى كنت مثقلا بكل أفضالها وأفعالها التى فعلتها من أجلى، لذا تجاوبت مع حبها واعترفت بحب لم يكن حقيقى، بقدر ما كان رد لجميل يطوق عنق قلبى، ومنذ تلك اللحظة لم أعد أشعر بحلاوة أى شىء تفعله من أجلى، وأصبحتُ أشعر بأنى دفعت الثمن، لأن كل ما كانت تفعله فعلته من اجل الحصول على قلبى، وها هى امتلكته بالرغم من أنه مستهلك ولا يليق بها، إلا أنها كانت تقنع نفسها بأنه الشىء الذى نال إعجابها وسعت لامتلاكه، لأنها تعرف قيمته، فهنيئا لها به .

وتعلمت أنه لا شىء بلا مقابل، لكنى اعترف أنها كانت أجمل حين كانت تعطى بدون مقابل أو لعل ذلك كان يرضى أنانيتى وغرورى أكثر، رغم أن ما كانت تعطيه لى من اهتمام وحب كنت دائما أتذوقه كالعسل المغموس فى ملح من وجع الضمير.

قمت سريعا من على فراشى وارتديت ملابسى ونزلت إلى الشارع أخذت مواصلة إلى أقرب مترو لأن ركوب المترو كان سيساهم فى اختصار كثير من الوقت ويقلل من زيادة تأخيرى عليها، وصلت محطة المترو وقطعت تذكرة ثم هرولت إلى ماكينة المرور وأدخلت بها التذكرة ونزلت بأسرع ما يمكن على السلم الكهربائى ورغم عدم التفاتى أو شعورى بالناس من حولى وتركيزى الكامل فى أن أذهب بأسرع وقت وألا أتأخر على "مروة" أكثر، إلا أنى كنت أشعر بنظرات تعجب و استنكار تعلو الوجوه لذلك المجنون الذى يهرول وكأنه فى مشهد مطاردة فى فيلم أمريكى ولعل الأكثر إدهاشا بالنسبة للناس، أن لا شىء فى

هذه البلد يستحق الهرولة إليه قبل أن ينفذ أو تضيع الفرصة فى امتلاكه فلا شىء أصبح من الممكن امتلاكه فى هذه الدولة حتى ما نمتلكه بأيدينا لا نمتلكه بأرواحنا ولا يصنع سعادتنا.

وصلت إلى السلم الثانى المؤدى إلى رصيف المحطة وكنت أسمع وأنا فى منتصفه صوت إنذار إغلاق أبواب القطار وكنت على وشك أن أقفز من فوق الناس أو أدفعهم بقوة وعنف حتى لا يفوتنى هذا القطار فيزداد تأخرى، رغم أنه من المعتاد أن بين كل قطار والآخر دقائق قليلة، لكن كل حواسى وأفعالى كانت تعمل تحت ضغط من تهديد ضميرى وإشهار سلاحه فى وجهى بأنه قد يقتلنى ندما إن تسببت مرة جديدة فى ألم لهذه الفتاة المسكينة، وقبل لحظة من دخولى عربة القطار التى كان مكان وقوفها أمام السلم مباشرة أُغلق الباب فكنت على وشك أن أبكى من الغيظ ووقفت احدق فى القطار وأنتظر أن يتحرك ويحرك معه أمواج غضبى وغيظى، لكن المفاجأة أن القطار لم يتحرك وفجأة وبدون أية أسباب واضحة تم فتح الأبواب مرة أخرى، ففُتحت بداخلى أبواب السعادة، وشعرت بنشوة انتصار على حظى العثر الذى كنت ألعنه قبلها بلحظات، وقفزت سريعا داخل العربة وحمدت الله أن حدثت هذه الصدفة، ووقعت عيناى على فتاة تقف بجوارى، كانت جميلة جمال هادئ من النوع الذى يخطف الأرواح التى تمرست عشق الجمال مثلى، وبدأت التأمل فى تفاصيل ملامح وجهها الطفولى، وحين انتبهت إلى نظرات إعجابى التى تغزو وجهها باب الدخول إلى حرم جمال روحها، ظهرت علامات الارتباك على ملامحها، فزادها ارتباكها حُسنا على حسنها وبعد عدد من المحطات التى توقف فيها القطار ولم أكن أعرف عددها لأن روحى كانت غادرت القطار فى رحلة فى حضرة ذلك الوجه الملائكى، لتكتشف تفاصيله وتقيم شعائر الأحلام بلمس تلك التفاصيل وتقبيلها، وفى إحدى المحطات وجدت المعجزة التى جذبتنى تتحرك فتحركت ورائها، وغادرت العربة ففعلت مثلها

وأنا كالمسحور فقدت الإحساس بكل شىء إلا الإحساس بالرغبة فى تتبعها ووجدت نفسى خارج محطة مترو السادات فى ميدان التحرير، من ناحية شارع طلعت حرب، ودخلت الشارع ماشية على الرصيف الأيسر، واقتربت أكثر منها وأنا لازلت أمشى خلفها، فجأة احتضنتنى نسائم عطرها العاصف بالألباب وازددت سكرا على سكرى، وأصبحت روحى حائمة حولها ترتل آيات النشوة والسعادة بالقرب منها.

وصلنا إلى ميدان طلعت حرب، وانعطفت يسارا ناحية مقهى "جروبى" ودخلته وجلست على إحدى الطاولات، وقتها فقط، انتبهت ولم أدخل خلفها ووقفت على الرصيف المواجه للمقهى وكنت اتابعها من خلال زجاجه.

وبدأت الأسئلة تحدث ضجيجا بداخلى، لماذا دخلت هنا؟ ومن تنتظر؟ ودب الخوف فى أروقة روحى من أن تكون تنتظر حبيبا أو صديقا، وبدأ عقلى يسأل، وماذا فى ذلك إن كانت تنتظر حبيبا أو صديقاً؟ ولماذا تقف أنت هنا ولماذا تتبعها أو لماذا لم تدخل خلفها؟ لكنى كنت لا أعير كل الأسئلة التى تدور بداخلى اهتماما وكان اهتمامى كله ينصب فى التركيز على مراقبتها من بعيد، وبعد فترة عشت فيها مخاوف أن تكون تنتظر رجل آخر غيرى، ويكون كل ما أحيا فيه مجرد وهم وليس بداية حلم جميل كما أتمنى، دخلت فتاة فى مثل عمرها المقهى، واقتربت منها، واحتضنتها، فشعرت بالسعادة أنها كانت تنتظر فتاة وليس فتى، وشعرت أيضا بالغيرة من أنها احتضنتها، وفجأة سمعت صوت هاتفى يرن بالنغمة التى خصصتها للرسائل وكانت رسالة من "مروة" تخبرنى فيها أنها فى طريق عودتها إلى المنزل لأن الوقت تأخر وبعد انتظارى لثلاث ساعات خذلتها ولم آت كعادتى، اتصلت بها ولسانى يثقله الندم وردت من أول رنين لاتصالى فقلت بدون مقدمات

ـ أنا أسف

وجاءنى صوتها ببكاء مكتوم

ـ أسف على إيه أنا خلاص اتعودت

كنت أشعر بأنى لم أعد أستطع أن استمر فى حِمل هذا الذنب أكثر من ذلك أو الاستمرار فى علاقة فقط لأنى أشعر بأننى يجب أن أدفع ثمن ما أخذته من طرفها الآخر من اهتمام وحب.. فقلت

ـ أنا عارف إنى ظلمتك كتير معايا وعارف إنك اتحملتى كتير بس صدقينى أنا حالة ميؤس منها

سألتنى باكية

ـ ممكن تجاوبنى سؤال واحد بس وبكل صراحة لأنى تعبت.. أنت حبيتنى فعلاً أو حتى حسيت إنك عايزنى بجد ؟؟

ـ .....

ـ انت سمعت سؤالى ؟؟

ـ أيوه سمعت

ـ طب فين الرد

ـ .....

ـ خلاص فهمت

ـ أنا أسف سامحينى بجد

ـ سلام

ـ .....

وأغلقت الهاتف ووقفت للحظات بداخلى مشاعر مختلطة بين إحساس بالحرية وراحة الضمير لأنى تخلصت من شعور دائم بالذنب وبعدم الراحة فى تلك العلاقة التى لم أستطع أبدا أن أقنع نفسى أنها حب وبين شعور بالحزن لأنى خسرت إنسانة رقيقة ونبيلة مثلها، ولأنى أعلم أنها ستعيش حالة حزن عميقة بسببى ورغم أنها كانت أول شخص بجانبى فى حزنى إلا أنى آخر شخص

يصلح لأن يكون بجانبها فى حزنها لأنى سببه ولعل شخصا آخر سيقترب منها، ويتعلق بها ولا تشعر به، ويعشقها وتظل تعشقنى رغم إحساسها بخذلانى لها، وتدور الدائرة التى لا يتوقف دورانها أبدا من خذلان من نحبهم وحب من يخذلونا.

عدت للحلم الذى كان يجلس أمامى فى مقهى "جروبى" وشجعنى أن أقترب أنى لاحظت أنها تحكى لصديقتها عنى وكان ذلك واضحا من ابتسامتها وهى تحكى وتنظر نحوى على استحياء ثم تنظر صديقتها بعدها وتتضحكان، قلت لنفسى، لا بد أنها تحكى لها عن ذلك المجنون الذى رأها فى المترو ولم تغادر نظراته وجهها الساحر ثم تبعها كالمجذوب ووقف خارج المقهى ينظر لها ويراقبها.

بدأت فى الاقتراب منهما، وتحولت نظراتها إلى نظرات قلق وخوف، ويبدو أنها حدثت صديقتها بأن ذلك المجنون يقترب فنظرت صديقتها خلفها نحوى وتحولت ملامح وجهها هى أيضا إلى فزع وقلق، ووصلت ملامح القلق والارتباك زروتهما حين وصلت أمام الطاولة التى كانتا تجلسان عليها ووقفت راسما على وجهى ابتسامة ثقة وود وقلت

- ايوه أنا المجنون بتاع المترو وممكن أتكرم وامنحكم فرصة أنى أطفى نار فضولكم لسر الجنون ده وأحكيلكم حكايتى، فى حالة لو سمحتوا لى اقعد معاكم، أما لو رفضتم فأكيد هانسحب وهاتفضل ذكرى الجنون دى حاضرة فى خيالى كذكرى حلم حلو عشته، أما أنتم فـ هتفضل ذكرى فضول مشتعل عمره ما يخمد ابداً ....

وسكت للحظات وقد علت ملامح الدهشة وجهيهما وأكملت حديثى بثقة أكبر

- قدامكم عشر ثوانى عشان تقرروا أمشى ولا أقعد وأحكيلكم حكايتى

وقبل أن أسمع ردهما سحبت أحد الكرسيين الشاغرين على نفس الطاولة بجوارهما وجلست ثم قلت وأنا أنظر فى عينها بابتسامة حب

_تحبى تسمعى الحكاية من أول إيه ؟ البنت اللى خذلتنى ولا البنت اللى خذلتها ولا القدر اللى جمعنى بيكى وخلانى حسيت إن روحك مغناطيس جذبنى وسحرنى وحسيت إنه رجعنى تانى للحياة ؟ ها نبتدى منين الحكاية على رأى حليم ؟ أوعى تكونى مش بتحبى حليم زيى أزعل بجد

لم ترد سوى بابتسامة سحرتنى ونظرت لصديقتها التى كادت أن تجن من فورة اندهاشها لجنونى لكنى لم أهتم وبدأت أحكى حكايتى وكانت بداية حكيى هى بداية حكايتى معها.

رقم الإيداع	٢٠١٥/٢٨٠٧٣
الترقيم الدولى	٩٧٨٩٧٧٣٨٣٣٢٦٦

للتواصل مع الكاتب

Facebook : Mohamed.abdelwhab.18

عصير الكتب

الملائكة لا يحملون الكتب

وكنت أسأل نفسي كيف يكون تأخر حلم الزواج بسبب أن ذلك هو قدري!
ولماذا أنا وكل من مثلي تتأخر أقدارنا! ولماذا لا يكون السبب هو المجتمع
بعاداته وتقاليده وذلك الزحام الشديد والحياة التي ليس فيها حياة!! ولماذا
على الفتاة في هذا المجتمع أن تعيش لتنتظر كل شيء.
حتى يمنحوه لها
ويخبروها أنه قدرها! ولماذا اعلاننا دائماً مؤجلة او
متوقفه على مجيء احدهم
او موافقته! حتى الرغبة في تكوين أسرة وبداية حياة
مختلفة لابد أن تنتظر
الفتاة أن يأتي شخص يطلبها للزواج لتبدأ حياتها. وهل
الزواج بالفعل
بداية الحياة أم نهايتها أم أن أهميته في مجتمعنا تعود
إلى ما يتم تحقيقه منه !!

مصعب عبدالوهاب

تصميم الغلاف : عبير مصعب